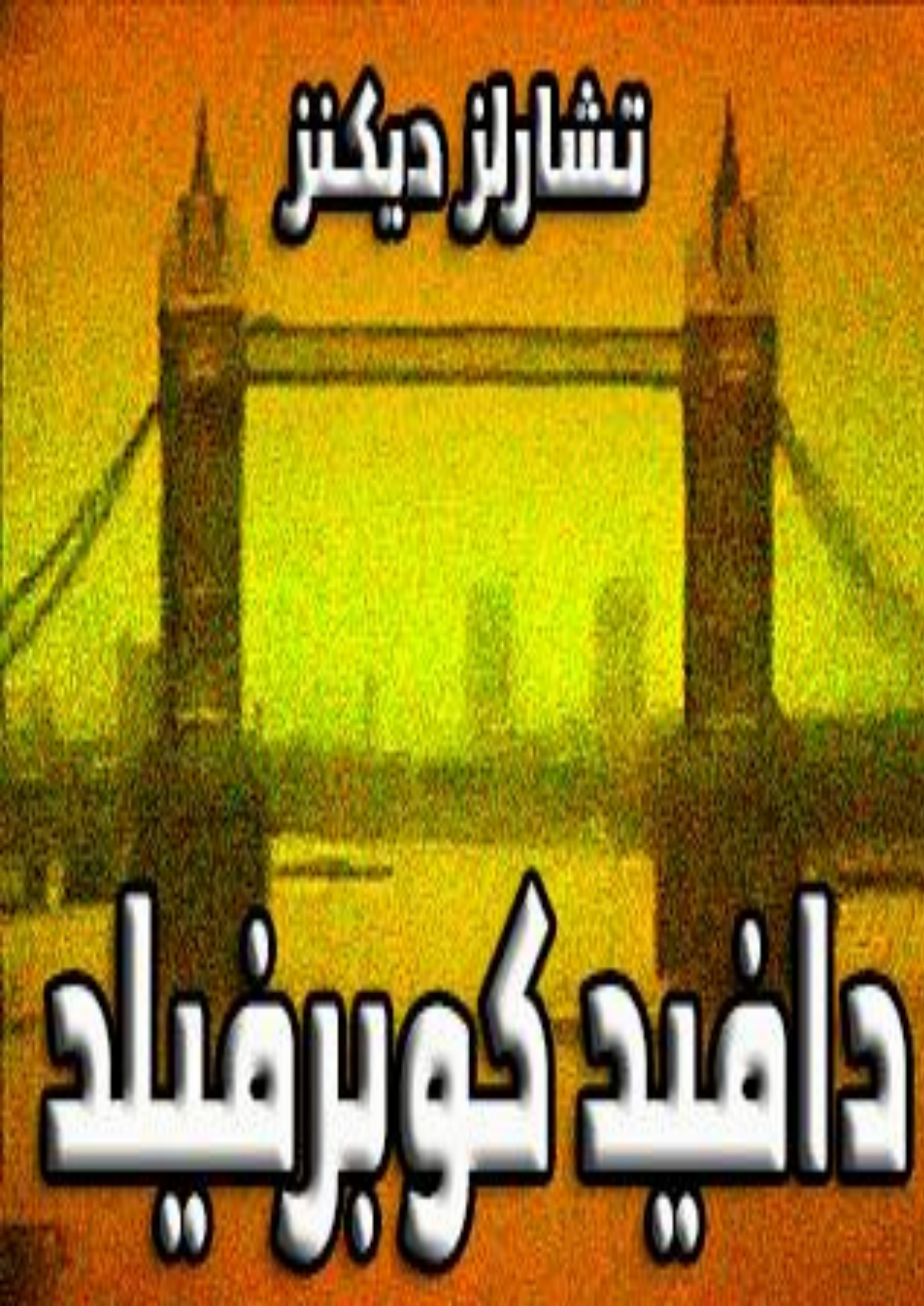
تشارلز ديكنز
دافيد كوبرفيلد

دافيد كوبرفيلد

(رواية)

بقلم :

تشارلز ديكنز

ترجمة :

نشوان زيد علي عنتر

١٩٩٩م

الفصل الأول

كانت ليلة مولدي موحشة للغاية بجوها العاصف و رياحه العاتية و رعوده و بروقه المروعة و مطره الغزير حيث لم يمض على وفاة والدي سوى أسبوع واحد فقط و والدتي تئن و تتوجع من شدة المرض بمفردها و بجوارها طفل رضيع أنجبته للتو ، في تلك الأثناء سمعت طرقا على الباب فنادت على خادمتها و صديقتها المخلصة بيجوتي لترى من الطارق ؟ (سأذهب و أرى سيدتي) فما إن فتحت الباب إذ به لم يكن سوى عمة أبي الآنسة تروتوود أتت للإطمئنان على صحة أمي الخائفة منها و طفلها الرضيع ، فهمست أمي لها بأنه لم يأت بعد (سيأتي قريبا)

(أنا لم أرك على هذه الحالة من قبل ، أعلم بأنك أنجبت طفلا رضيع واحد فقط ، أليس كذلك ؟ منذ اليوم لن تكوني بوجوده تعيسة للغاية ، سيما لو كانت بنتا صغيرة ، فأنا تعرفين طبعا بأني أحب البنات الصغيرات أكثر من الأولاد ، لذا سأهتم به كثيرا)

(أشكرك آنسة تروتوود ، علي أن أتركك الآن إلى غرفتي لأني أشعر بإعياء شديد)

ظلت الآنسة تروتوود جالسة على الكرسي تنتظر قدوم الطبيب فيما بعد إلى غرفة أمي و هي تنتفض خوفا (هل أنجبت الطفل أيها الطبيب ؟)

(نعم)

(هل هو بنت ؟)

(كلا ، بل ولد)

صرخت غاضبة في وجه الطبيب (أوه لا ، أنا لا أريد ولدا ، أنا أكره الأولاد الصغار)

غادرت منزلنا و هي تشتعل غضبا معاهدة نفسها بعدم رؤية أمي إلى الأبد .

لم يكن الطفل الرضيع الحديث الولادة سواي أنا ، أنا دافيد كوبرفيلد ، مرت الأعوام حتى بلغت السادسة من عمري و لم أكن أعرف أحدا من الناس المحيطين بي سوى أمي و بيجوتي اللذين أحببتهما كثيرا و لا سيما بيجوتي التي كانت على الدوام لطيفة و طيبة القلب معي و عشنا بغاية السعادة مع بعضنا البعض ، كنت و أمي نذهب كل يوم أحد إلى الكنيسة ، و في تلك الأثناء أوقفنا رجل طويل القامة ذو شعر أسود داكن

حيث أخافني منظره الجاف رغم إبتسامته العريضة أمامنا (صباح الخير سيدة كوبرفيلد)

(صباح الخير سيد موردستون)

(أرى أنك قد تحسنت كثيرا)

(أجل ، لقد صرت أفضل من ذي قبل ، شكرا جزيلا على إهتمامك بصحتي سيد موردستون)

وضع يده القاسية فوق رأسي الرطبة قبل أن أفلت من قبضتها بسرعة البرق ، فنظر إلي غاضبا ما لبث إبتسم لي مجددا (أهذا هو ولدك الصغير ؟ هل لي بدعوتي إلى منزلكم سيدة كوبرفيلد ؟)

(إفعل ذلك أرجوك)

ما إن ودعنا و إبتعد عنا حتى إشتعلت من الغضب العارم نحوه حيث لم أكن أطيقه و لا أطيق رؤيته مجددا و لا سيما عندما كان غالبا يزورنا ، و بيجوتي كانت تشاركني الشعور ذاته نحوه عكس والدتي التي وقعت في غرامه دون أن يعرف السبب ، ذات مرة أخذني السيد موردستون إلى لويستوفت رغم كرهي الشديد له دون أن أمانع الذهاب معه إلى هناك حيث كانت

بلـــدة جميلـــة للغايـــة مطلـــة علـــى البحـــر [1]، قابلنـــا فيهـــا بعضـــا مـــن أصـــدقاء الســـيد موردســـتون الـــذين ظلـــوا يثرثـــرون معـــه طـــوال اليـــوم (هـــا هـــا هـــا ، صـــديقتك الســـيدة كوبرفيلـــد جميلـــة للغايـــة ، ألـــيس كذلك ؟)

(أخفـــض صـــوتك حتـــى لا يســـمعك الفتـــى ، إنـــه ذكـــي للغايـــة و يفهم كل شئ و سيخبر والدته بكل شئ ، ها ها ها)

مـــا إن عـــدنا مـــن هنـــاك حتـــى أخبـــرت والـــدتي بمـــا كـــانوا يقولـــه أصـــدقاء الســـيد موردســـتون عنهـــا ، فـــإحمر وجههـــا مـــن شـــدة الخجـــل و مـــا لبثـــت أن ضـــحكت علـــيهم (لا تقـــل هـــذا يـــا دافيـــد ، فهذا الكلام غير صحيح)

رغـــم بلـــوغي السادســـة مـــن عمـــري إلا أنـــي لـــم أكـــن حينهـــا أســـتوعب العديـــد مـــن الأشـــياء المحيطـــة بـــي ، و فـــي يـــوم مـــن الأيـــام ســـألتني أمـــي مـــا إذا كنـــت أحـــب البحـــر أم لا ؟ فأجبتهـــا بالإيجـــاب (يمكنك أخذ عطلة إلى البحر)

(إلى أين سنذهب ؟)

[1] يقصد بحر المانش الشهير بأعاصيره العاصفة بين بريطانيا و فرنسا (المترجم) .

(لن أكون معك في هذه الرحلة يا بني ، بل ستكون مع بيجوتي و ستذهب معها إلى مسقط رأسها في يرموث المطلة على البحر حيث ستقيم معها و شقيقها الأكبر هناك)

(و ماذا عنك يا أمي ، ألن تأتي معي أيضا ؟)

(لا يمكنني أخبارك ، عندما تعود من هناك ستفهم كل شئ)

و هكذا ذهبت أنا و بيجوتي إلى منزل شقيقها السيد بيجوتي و الذي أحببته كثيرا رغم أنه كان مجرد قارب مهجور تم ترميمه من قبله فأضحى مأهولا بأربعة أشخاص يقطنون فيه و هم هام الذي توفي والده في عرض البحر و إيميلي التي تعيش مع خالها السيد بيجوتي بعدما توفي والدها في عرض البحر و توفيت والدتها حزنا عليه و السيدة جيميدج زوجة السيد جيميدج الذي كان صديق السيد بيجوتي الوفي قبل وفاته في عرض البحر أيضا ، كان السيد بيجوتي لطيفا للغاية حيث دعا هام و إيميلي و السيدة جيميدج للعيش معه و لا سيما إيميلي الصغيرة التي ما إن رأيت وجهها الجميل حتى أحببتها كثيرا ، بداية كانت خائفة مني و مع مرور الوقت تبددت مخاوفها نحوي و صرنا أصدقاء ، غالبا ما كنا نذهب إلى البحر و نجلس معا بين رماله الذهبية نتأمل مياهه اللازوردية (أنا خائفة من البحر ، هل أنت خائف منه ؟) أجبتها بالنفي كذبا و زورا .

(البحر قتل أبي)

(أعرف)

(عندما توفي أبي إهتم خالي بي ، إنه رجل طيب القلب)

(نعم ، هو كذلك ، إنه لطيف للغاية ، و أنا أحبه كثيرا)

(عندما أبلغ سن الرشد سيكون لدي الكثير من النقود بعدما أعمل بجد و أجمعهن ، و عندئذ سأشتري الملابس الرائعة لخالي و أعطه من نقودي أيضا)

لم تكن السيدة جميدج تطيق إيميلي و مرحها البسيط على الإطلاق حيث كانت كثيرة الشكوى و التململ من كل شئ يدور حولها ، ذات مرة خرج السيد بيجوتي من المنزل لغرض ما دون أن يخبرها بذلك (أين السيد بيجوتي ؟ تركني وحدي في المنزل هكذا ؟ إنه لا يهتم بي أبدا رغم أنه يعلم علم اليقين بأني وحيدة للغاية بلا أصدقاء و الناس لا يهتمون بي مطلقا)

هذا الكلام ليس صحيح ، فطالما ما إعتنى السيد بيجوتي بها و دعاها للعيش في بيته على الرحب و السعة ، و على الرغم من إدمانها للشكوى مرارا و تكرارا إلا أنه لم يتضايق من ذلك و يبادرها بلطفه الشديد و أريحيته المعتادة .

لقد قضيت وقتا ممتعا في يرموث رغم كونه قصير الأجل حيث شعرت بالأسف الشديد لرحيلي المبكر من هناك ، فلم أرد الرحيل بتاتا عن السيد بيجوتي و هام و السيدة جميدج و إيميلي الصغيرة التي حزنت لفراقها كثيرا عندما قابلتها آخر مرة (وداعا إيميلي ، لا أريد الرحيل من هنا)

(وداعا دافيد ، سأفتقدك كثيرا)

(و أنا أيضا إيميلي ، لن أكف عن مراسلتك أبدا)

(أفعل هذا أرجوك ، لا تنساني مطلقا)

ما إن رأيت منزلنا مجددا حتى شعرت بسعادة غامرة لا توصف ما دفعني للصراخ جزلانا فرحانا عند وصولي إليه ظنا أن بيجوتي و أمي سيستقبلانني بإبتسامتهما المعهودة ما لبثت أن تبددت من محياي المتفاجئ لحظة فتح الباب من قبل خادمة جديدة لم أرها من قبل قبل أن تنصرف حالا من أمامي بأمر من سيدتها بيجوتي التي نزلت دون والدتي إلي لإستقبالي إستقبالا جافا على غير عادتها (أين أمي يا بيجوتي ؟ لما هي ليست في المنزل ؟)

(هدئ من روعك يا عزيزي ، عندما تعود ستشرح لك الأمر)

(كــلا يــا بيجــوتي لــن أنتظــر ، ســتخبريني بمــا يجــري الآن ، أيــن أمي ؟)

كنت أرتعش من شدة الخوف (هل ماتت كأبي ؟)

ســرعان مــا إحتضــنتني بيجــوتي (أوه كــلا يــا عزيــزي ، أمــك لــم تمت ، و لكن ...)

(و لكن ماذا يا بيجوتي ؟ أخبريني ما الأمر ؟ أين هي أمي ؟)

(ســأخبرك ، أمــك تزوجــت مجــددا ، و قــد ذهبــت مــع زوجهــا الجديد في نزهة)

(من هو ؟ إياك أن يكون ...؟)

(بلــي هــو ، زوج أمــك الجديــد هــو الســيد موردســتون ، و أصبحت من الآن فصاعدا تعرف بالسيدة موردستون) .

الفصل الثاني

صعدت مسرعا صوب غرفة نومي و وضعت وجهي تحت البطانية أجهش بالبكاء الشديد دون أن يسمع أحد لنحيبي و عويلي الهادئ ماعدا بيجوتي التي مالبثت تعقبتني إلى مخدعي

(دافيد ، ما الأمر ؟)

(لا يمكنني أن أخبرك بيجوتي ، هئ هئ هئ)

(أنت السبب في بكائه يا بيجوتي ، إنه حزين بسببك ، ماذا قلت له ؟)

(قلت له الحقيقة المرة سيدة كوبرفيلد)

إندفع السيد موردستون غاضبا نحو بيجوتي بصوته الجهوري

(ويحك ! كيف تجرؤين على مخاطبة زوجتي بهذه الطريقة)

(ما الذي فعلته يا سيدي ؟)

(كيف تنادين زوجتي بالسيدة كوبرفيلد ؟ هل نسيت أنها زوجتي و أضحت من الآن فصاعدا تلقب بالسيدة موردستون فقط ؟)

(آه لقد تذكرت ذلك ، حاضر يا سيد موردستون)

غـــادرت بيجـــوتي غرفـــة دافيـــد بســـرعة خوفـــا مـــن غضـــبة الســـيد موردســـتون الـــذي مـــا لبـــث أن فـــرغ غضـــبه علـــى أمـــي مناديـــا إياهـــا بإســـمها الحقيقـــي (عزيزتـــي كـــلارا ، لقـــد أفســـدت فـــي تربيـــة ولـــدك دافيـــد حيـــث تحـــول علـــى يـــديك إلـــى بنـــت مدللـــة خاليـــة مـــن مـــن مقومـــات الشـــجاعة و القـــوة ، فلـــو ســـمحت أتركينـــا لوحـــدنا ، مفهوم ؟)

(حاضر يا عزيزي)

(إســـمع يـــا دافيـــد ، مـــن الآن فصـــاعدا لـــن أدللـــك و ســـأكون شديدا معك ، مفهوم ؟)

(مفهوم سيد موردستون)

(عنـــدما يســـيئ حصـــاني أو كلبـــي التصـــرف معـــي فـــإنني أضـــربه بالعصـــا ضـــربا مبرحـــا دون رحمـــة أو شـــفقة ، و لقـــد أســـأت التصـــرف معـــي رغـــم أننـــي زوج أمـــك الجديـــد لدرجـــة أنـــك أظهـــرت عـــدم رضـــاك بـــذلك و بكيـــت بكـــاء شـــديدا حزنـــا و غضـــبا علـــى هـــذا الحـــدث الســـعيد بالنســـبة لـــي و لوالـــدتك .... إســـمع يـــا فتـــى ، إن أســـأت التصـــرف معـــي مجـــددا فسأضـــربك ضـــربا مبرحـــا دون رحمة أو شفقة ، مفهوم ؟)

(مممفهوم سيد موردستون)

(أسعدتني بكلامك هذا ..... هيا يا دافيد ، تعال معي الآن)

كان صوته قاسيا يثير الرعب و هو ينادي لتناول طعام العشاء و يرغمني و والدتي على تناوله معه و شقيقته الآنسة موردستون حيث تعد نسخة طبق الأصل في شعره الأسود و وجهه القاسي و ثيابها و عاداتها و تقاليدها الشديدة الصرامة أيضا ، بعد تناول العشاء ، صعدت الآنسة موردستون إلى غرفة نومي و نظرت إلي بقسوة و صرامة (هذا الولد ولد شرير) .

ظلت الآنسة موردستون مقيمة في منزلنا ردحا من الزمن تنهض منذ الصباح الباكر و تتمشى بين أرجاء المنزل و غرفه العلويةبمن فيها غرفة أمي ناظرة إليهن شزرا مع شقيقها السيد موردستون (من الآن فصاعدا يا أخي ، كلارا ستدير المنزل)

إحتجت على هذا الأمر (كلا يا سيد موردستون ، كل ما طلبت هو المساعدة ، بمعنى آخر إمراة تشاركني إدارة المنزل و ليس أن تتولى إدارته بمفردها ، و هذا لا يرضيني لأني لا أحب أن أكون عاطلة عن العمل)

غضبت الآنسة موردستون من كلام أمي المستفز نحوها (أخي ، كلارا غير قادرة على إدارة هذا المنزل ، إنها حمقاء للغاية ، أما إذا أصريت عليها فسأغادر حالا)

(لا لا يا أختاه ، كلارا لم تكن تقصد الإساءة إليك ، فستبقين في المنزل و تديرينه بمفردك ، لا عليك)

حبست أمي دموع القهر و الظلم في عينيها الشاحبتين دون أن تنطق بحرف واحد مرة أخرى ردا على قرارات زوجها الجديد حيث لزمت الصمت نحوه مجددا .

كنا أنا و أمي و زوجها الجديد سيد موردستون و شقيقته النزقة آنسة موردستون نذهب إلى الكنيسة طوال أيام الأحد رغم أنها كانت آنذاك مكانا بائسا لا يبعث منظرها الرمادي على البهجة و السرور .

تولى السيد موردستون تدريسي ليحل محل والدتي في ذلك الأمر حيث كانت تعليمها يفوق ما يلقنه الأساتذة في معهد لطلابهم ، لم أكن أطيق السيد موردستون من شدة خوفي منه ، و مع ذلك كنت مجبرا على حضور دروسه محاولا التعلم منه و لكن دون جدوى ، فيستشيط غضبا مني و يخبر والدتي بأني عديم الفائدة (إبنك أحمق و غير صالح للتعليم ، و إذا

ظل على هذا المنوال فسيحرم من طعام العشاء) هو لا يعلم أني عادة لا أتناول طعام العشاء سوى قطعة من الخبز تقيم صلبي كل ليلة ، ذات يوم حمل السيد موردستون عصاه و وجهها نحوي بحزم (إستذكر دروسك و إلا ضربتك)

(لا أستطيع)

(تبا لك من ولد سئ و أحمق لا يهتم بدروسه البته ، تعال معي)

جرني إلى غرفتي بالقوة ، و هناك تشبثت بذراعه متوسلا إياه (أرجوك يا سيد موردستون بألا تضربني ، أنا أحاول قدر إستطاعتي التعلم منك و لكن دون جدوى)

(بل ستتعلم مني شئت أم أبيت)

جرني من شعر رأسي و ضربني على جسدي ضربا جمبرحا ، فصرخت من شدة الألم ثم ضربت يداه بأظافري ما أثار غضبه أكثر فأكثر فإنهال ضربا مبرحا علي مرة أخرى و على إثرها سقطت مغشيا عليه من الطابق العلوي ، بعد ذلك خرج السيد موردستون من المنزل و أغلق بابه و أخذ مفتاحه معه .

منذ ذلك الحين ظل البيت هادئا للغاية دون أن أسمع لأية أصوات تذكر و دون أن ألاحظ أيضا قدوم والدتي نحو غرفتي

حيث كنت مسترخ فيها بمفردي إلى أبعد حد لم أكن أتخيله لدرجة أني لم أشعر بمرور الزمن العابر حولي من صباح و عصر و مساء حتى حلول الليل و ظلامه الدامس ، و فجأة سمعت أصوات أقدام متباطئة تصعد نحو غرفتي فإذا هي الآنسة موردستون تفتح الباب لتقدم لي بعض الطعام دون أن تتحدث إلي بكلمة واحدة .

و في اليوم التالي ، صعدت الآنسة موردستون إلى غرفتي مجددا لتخبرني بسماحها لي بالتجوال في حديقة المنزل ، و ظللت معها على هذا المنوال طوال الأيام الأربعة التالية محرومة من رؤية وجه أمي على الإطلاق بأمر منها حيث كان عندها مفتاح غرفتي دون أن أتمكن من مغادرتها إلا بإذن منها ، في الوقت ذاته حضرت بيجوتي إلى منزلنا و لم يكن حينها باب غرفة نومي مفتوحا حيث تحدثت من خلاله معها (بيجوتي ، أهذا أنت ؟)

(بلى يا عزيزي دافيد ، أنه أنا ، اهئ اهئ)

كانت تبكي بحرقة عندما بادرتها بالبكاء أيضا من شدة الشوق و الحنين إليها (هل مازالت والدتي غاضبة مني ؟)

(كلا يا عزيزي ، أنا آسفة)

(تأسفين على ماذا يا بيجوتي ؟ ماذا سيحدث لي ؟)

(من الآن فصاعدا ، ستلتحق بالمدرسة الكائنة قرب إحدى ضواحي لندن)

(و متى سأذهب إليها ؟)

(صباح الغد ..... دافيد ، هل تسمعني يا عزيزي ؟)

(نعم ، أسمعك جيدا)

(لا تنساني يا عزيزي ، اهئ اهئ اهئ ، و أنا بدوري لن أنساك و سأهتم بوالدتك مهما حييت)

(شكرا لك يا بيجوتي و لن أنساك مهما حييت ، عديني بأمر واحد فقط و هو أن تكتبي لشقيقك السيد بيجوتي و إيميلي و تخبريهما بأنني لست ولدا سيئا إلى هذا الحد)

(سأفعل ذلك غدا يا عزيزي دافيد سأفعل ، أعدك) .

في صباح اليوم التالي ، حضرت الآنسة موردستون إلى منزلنا و وضعت ملابسي في الصندوق و توجهت بها نحوي و أمي بإزدراء سمج (أوه دافيد ، ستؤلم شقيقي السيد موردستون و تؤلمني بذهابك إلى المدرسة حيث كلانا سيفتقدك كثيرا رغم أنك بالنسبة لنا ولد سئ)

لـم أتمكـن مـن تـذوق طعـام الإفطـار لمـا مـن حـزن شـديد ألـم بـي لحظـة فراقـي لمنزلـي إلـى غيـر رجعـة صـوب مـا يسـمونها المدرسـة الداخليـة حيـث جـاءت العربـة منتظـرة بالخـارج و وضـعوا فيهـا صـندوق ملابسـي و أمتعتـي ، ودعتنـي أمـي بحرقـة شـديدة للغايـة (وداعـا يـا دافيـد ، وداعـا يـا بنـي ، قريبـا سـتعود إلـى المنـزل بعـدما إضحيت ولدا صالحا من هناك)

قاطعتها الآنسة موردستون بفظاظه (كلارا ، دعي الولد يذهب)

مـا إن صـعدت أنـا و الآنسـة موردسـتون إلـى العربـة حتـى إنطلقـت مسـرعة بنـا بعيـدا عـن والـدتي و منزلنـا الريفـي الصـغير و عـن كـل شـئ جميـل فيـه قبـل أن يتبخـر بريقـه الآخـاذ علـى يـد السـيد موردستون و شقيقته عند مجيئهما إليه .

الفصل الثالث

إنطلقت بنا العربة إلى يرموث عن طريق سائقها الثرثار المدعو باركس الذي لم يتوقف عن إرهاقي بأسئلته العديدة عن بيجوتي لصلتي بها حيث أحبها كثيرا و أراد الزواج منها دون أن يجرؤ على التحدث إليها لأنها أيضا لا تعلم البتة برغبته من الزواج منها ، ما إن وصلنا يرموث حتى إستقلينا حافلة مزدحمة و غير مريحة متجهة إلى لندن سرعان ما أضحت أكثر إرتياحا بالنسبة لي بعدما خف عدد الركاب فيها .

عندما وصلنا إلى المدرسة الداخلية في لندن إنتظرت كثيرا في إحدى غرفها الكئيبة إلى أن دخل علي أخيرا شاب نحيل للغاية طويل القامة يرتدي ملابس سوداء قاتمة اللون (هل أنت الولد الجديد في المدرسة ؟)

(نعم سيدي ؟)

(تعال معي ، أدعى ميل و أنا أستاذ أدرس الطلاب في هذه المدرسة ، سأخذك إلى هناك ، فالطريق إليها شاق و طويل للغاية)

(عفوا يا أستاذ ، هل يمكنني شراء بعض الطعام ؟ إني أتضور جوعا)

(طبعا ، ستذهب معي إلى بيت أمي و هناك يمكنك تناول ما تريد من الطعام الشهي)

و هكذا إشتريت بعض الطعام معه و ذهبنا معا إلى منزل والدته السيدة ميل المتواضع الصغير الحجم ، و رغم فقرها و عوزها إلا أنها شعرت بسعادة غامرة لحظة رؤيتها إبنها العزيز و من معه ، جلست قرب المدفأة ثم أكلت ، الطريق من يرموث إلى لندن طويل للغاية يدفع من يسيرون على خطاه إلى النعاس و الجوع مثلي أنا تماما ، طلبت من ولدها ميل أن يعزف على نايه لحنا كلاسيكيا فعزفه بشكل سئ للغاية دون يثير إنزعاجها حيث سرت بعزفه أيما سرور .

غادرنا منزلها الفقير و عدنا إلى المدرسة حيث أخذني إلى غرفتي الجديدة (من الآن فصاعدا ، سيكون هذا منزلك الجديد ..... سأوريك إياه ، إتبعني)

كانت غرفتي كبيرة الحجم و مفتقرة لبعض الأثاث المطلوب ، لكن ما لفت نظري لوحا أبيض اللون مدون عليه بعض الكلمات الغريبة (خذ العربة ، إنه يعض) فسألت أستاذي عنهن سؤالا أغرب منهن (من فضلك ، سيد ميل ، أين الكلب الموجود هنا ؟)

(عن أي كلب تتحدث ؟)

أريته اللوح السالف الذكر ، فإبتسم ساخرا (ها ها ها ، ليس هناك كلب يذكر ، أنت سترتدي هذا اللوح كل يوم مثل بقية زملائك) .

كانت تلك ليلتي الأولى التي نمت فيها بين جدران هذه المدرسة الكئيبة بمفردي ، و عندما إستيقظت من نومي كان لزاما علي إرتداء لوح الكلب الخشبية تلك و تسببت بتعاستي و وحدتي عند إرتدائي لها كل يوم ، تجولت لوحدي في فنائها الواسع حيث كان يوجد فيها باب كبير مدون عليه العديد من أسماء الطلاب من بينهما إسمان أثارا إهتمامي للغاية و جعلني أفكر بصاحبيهما كثيرا و هما (ستريفورث) و (تريدل) .

في إحدى الأيام ، عاد مالك المدرسة و مديرها السيد كريكل إليها حيث ما لبث السيد ميل أن أخذني إليه في المساء و قد أحمر وجهه و جحظت عيناه من شدة الغضب ممسكا بأذني اليمنى يهمس إلي همسا أثار خوفي و خوفه (إستمع إلي يا ولد ، أنا رجل قاس و جاد للغاية ، و أنا لا أحب الأولاد السيئين المشاغبين ، لذا كن ولدا عاقلا ، مفهوم ؟)

(حاضر سيدي سأفعل ، من فضلك ....)

(ماذا يا ولد ؟!)

(لا أريد إرتداء هذا اللوح الخشبي)

(ماذا تقول ؟! يجب أن ترتديه كل يوم رغما عنك ، أغرب عن وجهي الآن)

خرجت هاربا من غرفته بسرعة صوب غرفتي حيث صادفت في طريقي زميلي تريدل عائدا إلى المدرسة قبل غيره من الزملاء ، فأحببته من أول نظرة بعدما تحدث إلي دون أن يخوض معي في موضوع اللوح الخشبي و دون أن أمل من كلامه الطيب الودود عكس زملائه الذين وصلوا بعده و ظلوا يسخرون مني لحظة رؤيتهم اللوح المعلق على عنقي (أنظر إلى ذلك الولد .... أنظر إلى ذلك اللوح على ظهره ..... هو يعض ، إذن هو مجرد كلب)

شعرت بالتعاسة و الوحدة جراء سخريتهم السافرة مني قبل وصول ستريفورث و إلتقائي به (أهلا بك سيد كوبرفيلد)

(أهلا ستريفورث)

(ألديك نقود ؟)

(بلى)

(أعطها لي و سأساعدك و أستثمرهن لك)

أعطيته بعضهن (قلي يا سيد كوبرفيلد هل تريد إنفاق بعضهن ؟)

(لا أعرف)

(بل ستفعل ، سأشتري بهن بعض الخمر و الكعك)

في تلك الليلة ، تناولنا الكعك و الخمر معا داخل غرفتي بينما بقية الأولاد ناموا في غرفة واحدة كما أخبروني في المدرسة ، كما أخبروني أيضا عن السيد كريكل بأنه كان مدرسا جاهلا لا يفقه شيئا و سيئ الأخلاق حيث زارنا في اليوم التالي حاملا بيده عصا غليظة متجها نحوي (سيد كوبرفيلد ، أنت تعض ، أليس كذلك ؟ هكذا أفعل)

أشهر عصاه أمامي (هذه وسيلتي للعض)

فإنهال علي بها ضربا (هل أحببتها ؟)

ثم ضربني مجددا بقسوة (هل هي رائعة ؟)

فضربني مرة أخرى و على إثرها بكيت بكاء حارا من شدة ضربه المبرح لي ، كنت أمقت ذلك منذ اليوم الأول لي في

هـذا المكـان البـائس ، فلقـد كـان سـيد كريكـل يضـرب جميـع الأولاد بنفس الطريقة ما عدا ستريفورث .

مضـت أسـابيع علـى إقـامتي هنـاك حيـث كنـت أروي لسـتريفورت قصـة مـن قصصـي الطويلـة كـل ليلـة مـن شـدة حبـه للقصـص و بإعتبـاره مـن أعـز أصـدقائي ، أمـا السـيد ميـل فكـان يحبنـي و يدرسـني بشـكل أفضـل و مـا زاد مـن حبـي لـه إنتزاعـه للـوح المعلق على ظهري إلى غير رجعة .

مـا إن حلـت العطلـة حتـى تجمعنـا كلنـا فـي الصـف دون أن نـؤدي أي عمـل يـذكر سـوى الوقـوف إلـى جانـب السـيد ميـل رغـم أن زملائـي و مـن بيـنهم سـتريفورث أكثـر إزعاجـا لـه (سـتريفورث ، أصمت و إلتزم الهدوء)

(أهذا الكلام موجه لي ؟)

(نعم ، موجه لك أيها الفظ الوقح)

(أنـا لسـت فظـا وقحـا بـل إنسـان محتـرم للغايـة أمـا أنـت فمجـرد مـدرس فقيـر ، و الرجـل المحتـرم لا يمكنـه أن يصـبح فقيـرا مثلك)

(أنـا لسـت محترمـا أصـلا ، لأن الرجـل المحتـرم لا يـؤذي النـاس جميعا كما تفعل مع سيد كوبرفيلد الذي هو أفضل منك)

(أصمت و إلا ضربتك ضربا مبرحا ....)

ما إن سمع صوت الشجار الدائر بينهما حتى إقتحم الغرفة غاضبا (ما كل هذه الجلبة سيد ميل ؟)

(إنه ستريفورت ، كان فظا و وقحا معي)

(ستريفورث ؟! سليل الحسب و النسب كان فظا معك ؟)

(كلا يا سيدي ، كل ما في الحكاية أني وصفت السيد ميل بأنه فقير لأن والدته فقيرة)

(أهذا صحيح سيد ميل ؟)

(نعم سيد كريكل ، هذا صحيح)

(لم أكن أعلم بأنك من عائلة فقيرة ، فجميع المدرسين هنا من عائلات محترمة جدا ، لذا نحن لا نريد رجلا فقيرا بيننا ، مفهوم ؟)

(مفهوم سيد كريكل ، و سأرحل من هنا)

(ترحل الآن فورا !)

شاهدنا بهدوء سيد ميل يأخذ نايه و كتبه من الطاولة و يغادر غرفته سابقا دون أن ننظر إلى ستريفورت البتة ، أخبرني تريدل

بأنه يشعر بالأسف على رحيل السيد ميل من المدرسة مما أثار غضب ستريفورث منه (آسف ؟! آسف على ماذا ؟ إنه أحمق)

(لا تقل عنه أحمق ، السيد ميل فقير و الآن فقد عمله بسببك و غير قادر على جلب النقود لوالدته)

(سأرسل له نقودا ..... فأنا غني للغاية على الرغم من أنه كان فظا و وقحا معي و أنا بطبعي لا أحب الأشخاص الوقحيين) .

بالرغم من أن ستريفورث كان صديقي المفضل إلا أني شعرت بالحزن الشديد على السيد ميل اللطيف الطيب القلب معي الذي لطالما ساعدني في دروسي و واجباتي مرارا و تكرارا حيث لن نراه مجددا ، في إحدى الأيام شعرت بسعادة غامرة عند قدوم هام و بيجوتي لزيارتي حيث رحب الثاني بي بحرارة و أخبرني بأن زيارته لي (أهلا بك يا دافيد)

(أهلا بك يا عم بيجوتي ، لم أكن أتوقع مجيئك إلى هنا)

(بحكم زيارتنا المتكررة إلى لندن لأداء بعض الأعمال قررنا رؤيتك بعدما عرفنا أنك هنا ، لذا جئنا إليك على وجه السرعة)

(أنا سعيد بزيارتكما لي ، كيف حال إيميلي ؟)

(بخير و الحمدالله)

(و السيدة جميدج ؟)

(بخير و الحمدالله أيضا ، شكرا لك على سؤالك عنها)

(دافيد ، لقد إشترينا لك هدية رائعة للغاية ستعجبك ، إنه سمك ، ألا تحب السمك ؟)

(بلى يا هام ، أحبها كثيرا)

كنت أتضور جوعا في مدرستي الكئيبة تلك ، و فجأة حضر إلى غرفتي ستريفورت و ما إن رأى هام و سيد بيجوتي حتى إعتدل في هندامه و وقف رزينا أمامنا (آنا آسف للغاية ، لم أكن أعرف أن لديك ضيوف و يبدو أني أزعجتكم)

(كلا لم تزعجنا أبدا ، رحب بأصدقائي ، هذا سيد بيجوتي و هذا هام)

صافح ستريفورث سيد بيجوتي و هام (تشرفنا بكم)

(و نحن أيضا)

أخبرت ستريفورث بأن السيد بيجوتي لديه منزل كبير على شاطئ يرموث (أنه مجرد قارب)

(ذلك مشوق للغاية)

(سيد بيجوتي ، قريبا سأذهب إلى يرموث ، أيمكنني الحضور إلى هناك بصحبة ستريفورث لرؤية منزلك معا ؟)

(على الرحب و السعة يا بني ، أحضره معك و لا تنسى)

عندئذ غادر السيد بيجوتي و هام المدرسة بعدما أكلنا معهم وجبة السمك الشهية التي أهداني هام إياها ، و ما إن أتى أسعد يوم في حياتي يوم العطلة حتى كنت بغاية السرور لحظة مغادرتي المدرسة و لو ليوم واحد فقط .

الفصل الرابع

ذهبت إلى يرموث عبر الحافلة ثم أوصلني باركس بعربته إلى المنزل ، و عندما وصلنا سمعت أمي تغني غناء شجيا أطرب مسامعي دون أن أعرف السبب ، و ما إن فتحت الباب لي حتى تفاجأت بإحتضانها طفلا رضيعا بين ذراعيها ، لقد صار لدي أخ صغير ، و ما إن رأتني حتى إحتضنتني بحرارة مثلها مثل بيجوتي السعيدة بحضوري أيما سعادة ، فأكلنا معا ما طبخ في القدور على النار من طعام شهي لم أذق مثله من قبل ، أخبرت بيجوتي عن رغبة باركس بالزواج منها ، فضحكت قبل أن يحمر وجهها خجلا دون أن تتمكن من النظر إلينا بعدما وضعت كلتا يديها على وجهها مجددا (باركس هذا أحمق)

أصاب أمي الحزن و الأسى عند سماعها ذلك (آه يا بيجوتي ، هل ستتزوجين باركس ؟ هل ستتركينني بمفردي يا عزيزتي ؟)

(أوه كلا يا حبيبتي ، لن أتركك أبدا)

أحاطت بيجوتي أمي بذراعيها الحنونين لتهدئتها ، بعدها جلسنا حول المدفأة بهدوء ، ثم تحدثنا عن السيد موردستون

التـــي لـــم تكـــن بيجـــوتي تطيقـــه أبـــدا (إنـــه لـــيس لطيفـــا مـــع إبنـــك دافيد)

(أعلـــم هـــذا ، يـــاه يـــا بيجـــوتي ، كـــم أنـــت وقحـــة و تجعلينـــي أغضب بسرعة)

(أرجوك يا سيدتي لا تغضبي ، أنا آسفة)

(لا عليـــك ، لســـت غاضـــبة منـــك ، بـــل ســـعيدة للغايـــة بعـــودة ولـــدي دافيد إلى المنزل ..... هل ستقرأ لنا قصة يا دافيد ؟)

قـــرأت لهمـــا قصـــة رائعـــة مـــن قصصـــي فـــي المدرســـة حيـــث كانـــا ســـعيدين بهـــا أيمـــا ســـعادة و أشـــعرتهما بالراحـــة التامـــة إلـــى أن صـــارت العاشـــرة صـــباحا ، فـــإذا بنـــا نســـمع أصـــواتا عاليـــة لأشـــخاص فـــي الخـــارج ، لقـــد كانـــا الســـيد موردســـتون و شـــقيقته الســـمجة ، همســـت أمـــي لـــي بالـــذهاب إلـــى غرفـــة نـــومي فـــي الحـــال قبـــل أن يرونـــي هـــذه الليلـــة ، فنفـــذت مـــا أمـــرت بـــه و تمـــددت علـــى ســـريري و غطـــت فـــي نـــوم عميـــق حتـــى صـــباح اليـــوم التـــالي لأقابـــل الســـيد موردســـتون الواقـــف قـــرب المـــدفأة آنـــذاك حيـــث إعتـــذرت لـــه عـــن ضـــربي المبـــرح لـــه ردا علـــى عقابـــه الشـــديد لـــي ، فـــإكتفى بمصـــافحتي دون أن ينـــبس بـــأدنى شـــفة معـــي ، مازالـــت عينـــاه الباردتـــان مجردتـــان مـــن المشـــاعر اللطيفـــة ، و بجانبـــه شـــقيقته

السمجة تجلس على طاولة الطعام تنهال علي بأسئلتها المملة (كم مدة عطلتك ؟ متى ستعود إلى المدرسة ؟)

(شهر !)

(شهر ؟! ذلك كثير !! و مع ذلك ستتركنا مجددا و تعود إلى مدرستك في يوم من الأيام)

عادة ما كنت أجلس مع أمي و الآنسة موردستون بدلا من الحديث مع السيد موردستون الذي كان في الغالب يتجنب مخاطبتي أو النظر إلي دون أن أعرف السبب و لا سيما و أن أخي الصغير كان معنا على الدوام حيث أحببته كثيرا من النظرى الأولى ، و في يوم من الأيام تركت طفلها الرضيع لي كي أحتضنه بين ذراعي ، فإستشاطت الآنسة موردستون غضبا (ما هذا يا كلارا ؟! كيف تتركين هذا الولد يحمل طفلك الرضيع ؟ سوف يؤذيه)

سرعان ما إنتزعته أمي من أحضاني و شعرت بعدها بالتعاسة و الحزن الشديدين و زادت حدتهما أكثر من ذي قبل عندما مكثت مع السيد موردستون و شقيقته ، فبقيت في غرفتي منزويا أقرأ القصص بكافة و غالبا ما كنت أجلس في غرفة بيجوتي و أتحدث معها ، و هذا ما كان دائما يثير غضب

السيد موردستون حيث أرسل في طلبي على وجه السرعة في يوم الأيام (دافيد ، أنت ولد وقح و متجهم ، و أنا لا أحب الأولاد المتجهمين ، إلى متى ستظل منزويا في غرفتك أو تجلس مع الخادمات الجاهلات و لا سيما بيجوتي كل يوم ؟ إلى متى تتجنبي و تتجنب أختي أيضا ؟ هذه وقاحة منك ، لذا عليك أن تأتي إلى غرفتنا و تجلس معي و أختي و والدتك الآن و كل ليلة ، مفهوم ؟)

رضخت لأمره كل ليلة أجلس مرغما معهم دون أن يتكلم سيد موردستون و شقيقته معي ، أما أمي فلم تكن تجرؤ على مخاطبتي مخافة إزعاجهما ، قرأت الكتب المدرسية و أنا في حالة يرثى لها من التعاسة و الضيق لا تطاق قبل أن أخلد إلى النوم عند التاسعة مساء ، و ظللت على هذا المنوال حتى إنتهاء العطلة ، و عندما حضر باركس مع عربته ودعت السيد موردستون و شقيقته و قبلت أمي و إحتضنتها حيث وقفت عند الباب تلوح لي بيدها مودعة محتضنة أخي الرضيع رغم برودة الجو القارس في ذلك اليوم ، فإستقليت العربة الدائرة حول الركن دون أن نراهم مجددا .

ذات يوم و بعد مرور شهرين على عودتي إلى المدرسة أرسلت السيدة كريكل في طلبي لتخبرني بصوتها الودود للغاية بأن

أتمالك أعصابي و أستجمع شجاعتي عند سماعي لخبر مرض والدتي العضال دون أن أنبس بأدنى شفة نحوها ، ثم ما لبثت أن صدمتني بخبر وفاتها الشديد الوطأة علي (أمي ماتت ؟! و ماذا عن أخي الصغير ؟!!)

(أنه مريض ، مريض للغاية ، عليك الذهاب إلى منزلك غدا)

ما أن وصلت إلى المنزل حتى قابلت الآنسة موردستون أمامي بوجهها المتجهم قبل أن تحدثني ببرودها السمج كالعادة (دافيد ، لقد قضت أمك نحبها ، و أنا آسفة على ذلك ، عليك الذهاب إلى غرفتك و بسرعة)

و عندما صعدت إلى غرفتي رأيت السيد موردستون دون أن يتحدث معي بكلمة واحدة حيث ظل يلف و يدور حول البيت أو حتى الجلوس بهدوء ، فحمل كتابا معه دون أن يتمكن من قراءته جراء حزنه الشديد على والدتي الراحلة عنا ، إحتضنتني بيجوتي بذراعيها الوديعتين و تخبرني بأن أمي كانت تكتم أمر مرضها العضال عن الجميع بمن فيهم أنا منذ زمن طويل (و مع ذلك لم تنسك البتة يا عزيزي ، فلقد أحبتك أكثر مما تتصور و كانت تتحدث عنك أمامي طوال اليوم ، إياك أن تنساها)

(أعدك يا بيجوتي بأني لن أنساها مهما حييت)

و لكنـــي مـــا إن بـــدأت أتـــذكر أمـــي و أيامهـــا الســـعيدة معـــي و والـــدي الراحـــل حتـــى غطـــت ذكـــرى زواجهـــا التعـــيس مـــن الســـيد موردستون المظلمة على نورها الوهاج في ذهني البرئ .

لـــم أعـــد إلـــى المدرســـة مطلقـــا بســـبب تكاليفهـــا الباهظـــة للغايـــة ، لـــذا لـــم يرغـــب الســـيد موردســـتون بإرســـالي إلـــى هنـــاك مجـــددا لأبقـــى رهـــين المحبســـين فـــي منزلـــي الخـــانق الكئيـــب أعـــاني مـــرارة الحـــزن علـــى والـــدتي و أخـــي الـــراحلين و كـــره الســـيد موردســـتون و شـــقيقته الســـمجة الشـــديدين لـــي وصـــلت إلـــى حـــد طـــرد بيجـــوتي التـــي أحبهـــا مـــن البيـــت إلـــى غيـــر رجعـــة (دافيـــد ، الســـيد موردســـتون لا يريـــدني فـــي المنـــزل ، علـــي أن أجـــد عمـــلا جديـــدا ، لـــذا ســـأعود إلـــى يرمـــوت ، هـــل ســـتأتي معـــي إلـــى هنـــاك ؟ بإمكاننـــا أخـــذ عطلـــة معا)

لـــم يمـــانع آل موردســـتون بالـــذهاب إلـــى يرمـــوث معهـــا ، فإســـتقليت عربـــة بـــاركس الطـــائر مـــن الســـعادة و الفـــرح بجلـــوس بيجـــوتي التـــي كانـــت تحبـــه بجـــواره ، و مـــا إن وصـــلنا إلـــى منـــزل شـــقيقها الســـيد بيجـــوتي حتـــى ســـر أيمـــا ســـرور لرؤيتنـــا ، فســـألته بـــدوري عـــن إيميلـــي ليجينـــي بأنهـــا مـــاتزال فـــي المدرســـة ، فإشـــتكت ســـيدة جميـــدج التعيسة دائما من غيابها (لما لم تعود يا سيد بيجوتي ؟)

(قريبا ستأتي)

و ما إن عادت إيميلي حتى دهشت لرؤيتنا حيث كانت بغاية الجمال ، ما دفعني إلى الترحيب بها أيما ترحاب و طلب تقبيلها منها قبل أن تصدني بأدب بعدما أحمر وجهها خجلا ، فإقتربت مني و إمسكت بيدي (دافيد ، لقد علمت بأن أمك و أخيك الصغير قد وافاهما الأجل ، أنا آسفة) إغرورقت عيناها الزرقاوان بالدموع دون أن يعبثوا بجمالها الفتان رغم حزنها الشديد علي ، ثم

تناولنا معا طعام الغداء في منزل السيد بيجوتي ، و بعد ذلك تحدث معي السيد بيجوتي عن زميلي في المدرسة ستريفورث بمنتهى الإعجاب به (ستريفورث صديق رائع للغاية)

(حقا أنه رائع للغاية و أذكى مني أضعافا مضاعفة حيث أنه قادر على التعلم بسرعة)

(أنظر إلى إيميلي ، ها ها ها ، هي لم تر ستريفورث أو تعرفه ، إلا أنها ستحبه لاحقا)

فإحمر وجه إيميلي خجلا و وضعت يداها على وجهها الجميل ما دفع السيد بيجوتي و هام إلى الضحك عليها من فرط حبهما و تدليلهما لها ، قضيت وقتا ممتعا في يرموث

على الدوام و لا سيما بعدما أعددت مفاجأة كبرى لبيجوتي و باركس تمثل بزواجهما الميمون حيث إرتدى كلاهما ثياب عرس جديدة بحلة قشيبة عند عودتهما إلى منزل السيد بيجوتي و أضحت بيجوتي تعرف من الآن فصاعدا بالسيدة باركس في يوم من الأيام .

لكن سرعان ما إنتهت هذه الأيام السعيدة التي قضيتها هناك إثر عودتي إلى المنزل دون أن يزول جو الحزن و الكآبة منه ، و كعادته لم يتحدث السيد موردستون معي و إن كان قد بدا لطيفا معي نوعا ما على غير عادته حيث لم يضربني ضربا مبرحا و أعطاني طعاما شهيا ، ذات يوم ، أرسل في طلبي ، فذهبت إلى غرفته و معه رجل غريب (دافيد ، هذا السيد كونان و لديه مكتب في لندن حيث ستعمل عنده و لن تعود إلى المدرسة أبدا ، ستجني نقودا من عملك لديه يوفر قيمة طعامك و مسكنك عنده ، فإستعد للذهاب إلى هناك عما قريب) .

الفصل الخامس

كان مكتب السيد كونان مظلما و قذرا للغاية و كنت أعمل فيه إلى جانب ولدين أخرين في غسل القوارير الزجاجية القذرة كل يوم ، لقد كرهت هذا العمل حتى بلوغي العاشرة من عمري ، في اليوم الأول من عملي هنا أرسل السيد كونان في طلبي و بصحبته رجلا محترما يرتدي معطفا بني اللون أصلع حيث عرفني و تصافحنا بالأيدي (دافيد ، هذا السيد ميكوبر)

(تشرفنا سيد ميكوبر)

(تشرفنا يا بني ، متى تنتهي من العمل ؟)

(عند الثامنة مساء)

(بعدما تنتهي من عملك سأتي إلى هنا لأخذك إلى منزلي المتواضع ، تستطيع أن تجده بسهولة) ، في تلك الليلة أخذني السيد ميكوبر إلى منزله حيث كان كبير الحجم رغم أنه يبدو من خارجه فقيرا للغاية ، حدثتني السيدة ميكوبر عن زوجها بأن حظه مع النقود سئ للغاية (لايزال مدينا للعديد من الناس بنقودهم دون أن يتمكن من سداده لهم) كان السيد كونان يدفع لي على عملي كل أسبوع ست شلنات أنفقهن جميعا على الطعام دون أن أتمكن من شراء معظمه لأظل

جائعا على الدوام حيث كنت أتناول قطعة خبز و كوبا من الحليب صباحا و مساء ، لقد كانت حياة قاسية للغاية عانيت من الفقر و الجوع فيها ، لكن آل ميكوبر عانوا من الفقر مثلي أيضا !

في إحدى الأيام سألتني السيدة ميكوبر عما إذا كان بإمكاني مساعدتها بالنقود لعدم وجود ما يسد رمقهم من الطعام في المنزل ، فأخرجت من جيبي شلنين و أعطيته لهما (من فضلك ، خذيهما)

(أشكرك يا دافيد ، و لكني لا أريد نقودك بل أريدك أن تبيع كتب سيد ميكوبر ، هل ستأخذهن إلى الدكان ؟ أرجوك)

(نعم)

بعت الكتب لها و أعطيتها ثمنهن ، فسرعان ما تبددت تعاستها و عادت سعيدة للغاية مجددا و قبلتني في جبيني بحرارة ، منذ ذلك الحين ظللت أبيع لها ما تود بيعه من أشياء و أغراض موجودة في المنزل بغية الحصول على المال ، شعرت بالأسف و التعاسة نحوهم و غالبا ما كنت أفكر بالسيد ميكوبر و وضعه البائس بعدما تراكمت الديون عليه دون أن يتمكن من سدادها جميعا لتقتاده الشرطة هو و

أسرته على إثر ذلك إلى السجن العام في لندن حيث كنت أواظب على زيارته هناك قبل أن يساعدهما بعضا من أقربائهم في تسديد ما عليهما من ديون و يتم الإفراج عنهم ، و بعد عودتهم إلى المنزل تناولنا العشاء معا في جو شاعري سعيد ملؤه البهجة و السرور ، و بعد العشاء أخبرني السيد ميكوبر بأنه سينتقل غدا هو و عائلته إلى بلايموث للعمل هناك (سنبدأ حياة جديدة هناك ، سنفتقدك يا دافيد كثيرا ، لذا لدي بعض النصائح المفيدة لك ، إكسب عشرين جنيها سنويا شريطة أن تنفق منها تسعة عشر جنيها فقط عندها ستصبح سعيدا للغاية ، أما إذا كسبت عشرين جنيها و أنفقت منها واحد و عشرين جنيها في السنة فستجعلك تعيسا إلى الأبد ، لذا تجنبها تماما)

(شكرا يا سيد ميكوبر على هذه النصائح المفيدة)

في اليوم التالي غادر آل ميكوبر لندن إلى بلايموث و لوحت بيدي لهم مودعا بعدما أعطيت الهدايا لأطفالهم و قبلتني السيدة ميكوبر على جبيني ، عندها شعرت بالوحدة و الحزن و كرهي الشديد لمدينة لندن قلبا و قالبا قبل أن تواتيني فكرة بالذهاب إلى خالتي بتسي تردوود ، لذا بعثت برسالة إلى بيجوتي طالبا منها بعض النقود لتقابل طلبي بالإيجاب و ترسل

لـــي بعضـــا منهـــا عبـــر رســـالتها الأخيـــرة إلـــي حيـــث أخبرتنـــي بـــين ســـطورها بـــأن عمتـــي تعـــيش فـــي مدينـــة دوفـــر [٢]، فرديـــت عليهـــا بـــأني ســـأذهب إلـــى هنـــاك يـــوم الســـبت ، و مـــا إن حـــل اليـــوم الموعـــود حتـــى أخـــذت صـــندوق الثقيـــل مـــن بيتـــي ، و أثنـــاء ســـيري رأيـــت شـــابا متجهمـــا لـــم أحبـــه يقـــود عربتـــه علـــى طـــول الطريـــق ، فطلبـــت منـــه أن يحمـــل أمتعتـــي و يأخـــذني معـــه (لـــو ســـمحت ، هـــلا أخذتني معك ؟)

(إلى أين ؟)

(إلـــى محطـــة دوفـــر للحـــافلات كـــي أســـتقل واحـــدة مـــنهن متجهـــة إلى هناك)

فرمـــى صـــندوق ملابســـي بعنـــف خلفـــه ، فوضـــعت قطعـــة النقـــود فـــي فمـــي ظنـــا منـــي أنـــه لـــن يـــتمكن مـــن إنتزاعهـــا منـــي ، لكنـــي تـــذكرت شـــيئا هامـــا كـــان علـــي فعلـــه قبيـــل ركـــوبي العربـــة ، فأنـــا نســـيت أن أكتـــب إســـمي و عنـــواني علـــى صـــندوق ملابســـي ، فرجـــوت ســـائقها أن يتوقـــف فـــي الحـــال حيـــث أوقـــف عربتـــه فـــي شـــارع خـــال مـــن المـــارة صـــارخا فـــي وجهـــي (مـــا هـــذا ؟ لا يوجـــد إســـمك علـــى الصندوق ، إنه ليس لك)

[٢] مدينة ساحلية على بحر المانش و تقابل نظيرتها كاليه على الساحل الفرنسي (المترجم) .

(بلى إنه لي)

و أثناء نقاشي المحتدم معه سقطت قطعة النقود من فمي على الأرض ، و ما إن سعيت إلى إعادتها حتى خطفها السائق مني و إنطلق بعربته مسرعا بعيدا عني ، فركضت عبثا نحوه لإستعادة نقودي و صندوقي منه دون أن أتمكن من اللحاق به ، وقتها لم يكن لدي نقود كافية لركوب الحافلة و شراء بعض الطعام ، فأثرت السير إلى دوفر مشيا على الأقدام و قررت بيع صديريتي التي أرتديها على صدري لإحدى الدكاكين القريبة مني ، و عندما سألني صاحبها عن ثمنها أجبته بأنها شلن و ست بنسات ، فإستغرب من ثمنها الباهظ للغاية و إعتبرها أكثر مما يجب بالنسبة له ، فإكتفى بإعطائي تسع بنسات فقط أشتريت بهن طعاما و من ثم واصلت سيري حتى حلول الظلام و نمت في العراء قبل أن أستأنف المسير صباح اليوم التالي يوم الأحد حتى وصولي بلدة تشاثم القريبة من لندن حيث كنت مبتهجا لخلوها نوعا ما من الناس بفضل قضائهم للعطلة آنذاك كيلا يروا منظري القذر للغاية مما إضطرني إلى النوم في العراء مجددا بعيدا عن أنظارهم الفضولية ، و عندما إستيقظت مبكرا شعرت بالجوع الشديد ، فأضطررت إلى بيع معطفي بثمن بخس لم أجن من ورائه نقودا

كثيرة ، ثم تابعت طريقي و أنا في حالة يرثى من شدة التعب و الإرهاق و الحزن و القذارة يملأون ما تبقى لي من ثياب مكونة من قميص و سروال مهترئين للغاية ، و بعد جهد جهيد تمكنت أخيرا من الوصول إلى دوفر ، و هناك سألت أحد المارة عما إذا كان يعرف السيدة تروتوود أم لا ؟ فإذا به يصرخ في وجهي غاضبا (لا أعرف ، أغرب عن وجهي أيها القذر)

فررت منه خائفا و توجهت نحو أحد الدكاكين الموجودة في دوفر حيث طرحت على رواده نفس السؤال السالف الذكر ، فإنقضوا علي إنقضاض الوحوش و طردوني من عندهم (إبتعد عنا أيها القذر)

(اهئ اهئ اهئ ، أرجوكم ، أجيبوني ، هل تعرفون السيدة تروتوود ؟)

ردت عليا فتاة تدعى جانيت خرجت من بين جموع الزبائن الغاضبين (بلى أعرفها عز المعرفة ، فأنا خادمتها العزيزة ، كم أنت محظوظ أيها الفتى)

إصطحبتني معها إلى بيت عمتي حيث طلبت مني البقاء في الخارج ريثما تبلغ سيدتها بأمره (هل أنت متسول ؟)

(كلا ، لست مستولا)

(و لكنك تبدو كالمتسول)

إنتظرت عمتي السيدة تروتوود في الخارج حتى قدومها إلى بوجهها العابس (ماذا تريد يا هذا ؟ إبتعد عني ، أنا لا أحب الأطفال القذرين)

(أرجوك يا عمتي ، أنا إبن أخيك ، إبن أخيك دافيد كوبرفيلد)

ما إن سمعت بإسمي حتى جثت على ركبتيها باكية (ماذا ؟! أنا لا أصدق ، اهئ اهئ ، تعال إلى حضني تعال) إحتضنتني عمتي دون أن تلاحظ إتساخ ملابسي بعد رحلتي الطويلة تلك إلا عندما أدخلتني إلى بيتها (إنك قذر للغاية و عليك أن تستحم ، هيا إلى الحمام هيا)

أخذت حماما و بعد ذلك تناولت العشاء معها ، و قامت خادمتها بإحراق ملابسي القديمة و إستبدلتها بغيرها جديدة كي أرتديها ، و أثناء جلوسنا قرب المدفأة دار معظم حول زوج والدتي الراحلة السيد موردستون و سوء معاملته لي (هل ينبغي أن أعود إليه يا عمتي ؟)

(لست أدري يا دافيد ، سأخبرك بقراري حول هذا الموضوع غدا ، إذهب الآن إلى سريرك و نم و أحلم أحلاما سعيدة)

و هكـذا ذهبـت إلـى السـرير و نمـت نومـا هنيئـا لـم أحـظ بـه مـن قبل .

الفصل السادس

في صباح اليوم التالي ، تناولت الإفطار مع عمتي التي جلست بالقرب مني دون أن تتكلم معي و إن كانت نظراتها المريبة نحوي لم تشعرني بالإرتياح قبل أن تتوقف عنها (بالمناسبة ، أنا بعثت للسيد موردستون برسالة و قريبا سيأتي إلى هنا)

ما إن سمعت هذا الكلام حتى توقفت عن الإفطار من شدة الخوف الذي إعتراني قبل قليل (أوه لا ، هل سيأتي إلى هنا ليعيدني إلى المنزل ؟)

(لا أعرف ، هل إنتهيت من إفطارك ؟)

(نعم)

(يا لك من ولد رائع ، إذهب يا عزيزي إلى حديقة المنزل و ألعب فيه كما يحلو لك)

مر أسبوعان على أول لقاء جمعني بعمتي العزيزة و أدى فيما بعد إلى إنسجامنا ببعضنا البعض ، و في إحدى الأيام جلست معها بالقرب من الشرفة المطلة على حديقة المنزل الجميلة تحت أشعة الشمس البراقة قبل أن تنهض من مقعدها فجأة تنادي غاضبة على خادمتها جانيت التي لبت نداءها على وجه

السرعة (جانيت ! هناك حمار يتجول في حديقة منزلي و يفسد عشبها الجميل بأسنانه القذرة)

سرعان ما هرولت جانيت صوب الحديقة قادمة من الشرفة لترى من قد آتى إلينا للتو ، فإذا بها الآنسة موردستون على متن الحمار الذي أثار وجوده غضب عمتي و دفعها إلى الركض نحوه و جره و صاحبته خارج المنزل (إرحلي من حديقتي أيتها الوقحة أنت و حمارك الأهوج ، و إياكما أن تدوسا عليها و تشوها منظره الجميل بأقدامكما القذرة)

لم تكن عمتي تعرفها جيدا لأنها لم ترها من قبل رغم علمها علم اليقين بأنها شقيقة زوج أمي الراحلة السيد موردستون ، فلحقت في أثرها لأخبرها بالهوية الحقيقية للسيدة السمجة ذاتها التي دخلت معها في مشاجرة عنيفة دون أن تصغي لصراخي العالي نحوها (إرحلي عن حديقتي يا إمرأة)

(عمتي ، هذه الآنسة موردستون)

(أوه لا ؟! ..... تعالي إلى المنزل)

سرعان ما عادت إلى البيت و هي غاضبة من نفسها و نحن لحقنا في إثرها أنا و السيد موردستون و أخته السمجة حيث

قابلتهما بالترحاب و الإعتذار و جلست معهما في غرفة الضيوف (إذن ، تزوجت زوجة إبن أخي ، أليس كذلك ؟)

بدا السيد موردستون غاضبا من سؤالها (دافيد ولد سئ للغاية لأنه غير قادر على جني المال ، وضعته في مكتب للعمل ، فماذا فعل ؟ إنه مدين لي و مع ذلك لم يشكرني على معروفي له بفراره من العمل ، لا بد أن يعود إلى المكتب حتى يكسب رزقه من عرق جبينه)

(لا عمتي لا تستجيبي له ، لا أريد العودة إلى هذا المكان القذر)

(يجب أن يعود إلى هذا المكتب يا سيدتي في الحال ، و وقتها لن أراه و لن أساعده مجددا و لن يخاطب لساني لسانه ثانية و لن أعطه أية نقودا بالمرة)

(أنت لا تساعده بهذه الطريقة يا سيد موردستون بل تضره ، لذا دافيد لن يعود إلى هذا المكتب القذر و سيبقى في بيتي ، و لو سمحت إرحل من هنا الآن)

(سأرحل ، و لكن هذا الولد يا سيدتي أحمق و متجهم و سئ للغاية)

(و أنت أسوأ الناس الذي رأيتهم في حياتي ، أما يكفي أنك و شقيقتك السمجة كنتما قاسيين للغاية مع زوجتك الراحلة و إبنها و جعلتماهما يعانيان التعاسة و الشقاء بسببكما و الآن تطلبان مني إعادة دافيد إليكما يا قساة القلوب ؟)

(يا لك من إمراة وقحة)

(هذا بعض مما عندكم يا آنسة موردستون ، لذا كوني هادئة و إرحلي من بيتي الآن و إياكي أن تعود إليه على ظهور الحمير و تدوسين بهم حديقتي مجددا ، مفهوم ؟)

غادر السيد موردستون و شقيقته السمجة منزل عمتي و هما يشتعلان من شدة الغضب إلى غير رجعة ، فتنفست الصعداء لرحيلهما من هنا إلى الأبد (إسمع يا دافيد ، من الآن فصاعدا منزلي هو منزلك ستبقى فيه إلى أبد الآبدين)

ما لبثت من شدة فرحتي أن قبلت يديها و جبينها (أشكرك جزيلا يا عمتي ، أشكرك)

(لا عليك يا بني لا عليك ، أنت إبن أخي العزيز و لن أتخلى عنك أبدا ، لذا عليك ألا تفكر بالعمل بل بالدراسة و الذهاب إلى المدرسة مجددا ..... أعرف ، تريد الذهاب إلى إحدى

المـــدارس فـــي كـــانتربري[٣] أعـــرف ، و مـــن أجـــل ذلـــك ســـنزور وايكفيلد هناك)

(من يكون السيد وايكفيلد هذا ؟)

(إنـــه المحـــامي الخـــاص بـــي الـــذي يـــدير أمـــوالي و صـــديقي أيضـــا ، لأنـــه محـــام ذكـــي ســـيعطينا بعـــض النصـــائح حـــول المـــدارس المناسبة لك هناك)

ذهبنـــا إلـــى كـــانتربري علـــى مـــتن عربـــة خـــالتي ، و مـــا إن وصـــلنا إلـــى مكتـــب الســـيد وايكفيلـــد حتـــى بـــدا لنـــا مـــن نافذتـــه و نحـــن فـــي الخـــارج وجـــه نحيـــل القامـــة أبـــيض اللـــون ذو عينـــان خضـــراوان ، لقـــد كـــان كاتـــب المحـــامي وايكفيلـــد و أمـــين ســـره يـــوري هيـــب الـــذي نـــزل مســـرعا إلينـــا لإســـتقبالنا حيـــث قادنـــا إليـــه كـــي يرحـــب بنـــا بشـــعره الأبـــيض العـــريض و وجهـــه الأحمـــر (صـــباح الخيـــر آنســـة تروتوود ، بماذا أخدمك ؟)

(أريد مدرسة ممتازة لدافيد ، أتعرف واحدة ؟)

(بلى أعرف ، و غدا يمكن لدافيد الذهاب إليها)

(غدا ؟ و أين سيمكث اليوم قبيل ذهابه إلى المدرسة ؟)

[٣] إحـدى ضـواحي لنـدن الجنوبيـة و تقـع فيهـا كنيسـة كـانتربري الشـهيرة التـي يـتم تتـويج ملـوك بريطانيـا العظمـى بـداخلها (المتـرجم)

(لا عليك يا آنسة تروتوود ، يمكنه البقاء عندي ، فلا تخشي شيئا)

غادرت عمتي كانتربري و بقيت وحدي في هذه المدينة العريقة مقيما عند منزل السيد وايكفيلد ، و في منتصف الظهيرة توجهت إلى مكتبه ، و هناك إلتقيت بسكرتيره الذي لا أطيقه يوري هيب بجسده النحيل و ثيابه السوداء القاتمة و صمته الغالب معي ، و عندما توجه إلى منزل السيد وايكفيلد رحب بي و صافحني بيده النحيلة الباردة برود السمك في جوف البحر .

تناولت العشاء مع السيد وايكفيلد و إبنته الجميلة و الهادئة للغاية أغنيس حيث أحببت وجهها الهادئ بعدما عرفني والدها السيد وايكفيلد بها ، فمن شدة حبه لها أمسك يدها و إبتسم لها أمامنا كل ليلة ، و في الصباح الباكر توجهت إلى مدرستي الجديدة حيث بقيت فيها طوال اليوم و غادرتها عائدا إلى منزل السيد وايكفيلد منتصف الليل و تناولنا العشاء معا ، ثم ذهبت أغنيس إلى غرفتها ، بعد ذلك سألني والدها عن المكان الذي سأقيم فيه بمدينة كانتربرى (أين ستقيم يا دافيد ؟)

(هل يمكنني الإقامة عندكم سيد وايكفيلد ؟)

(بكل سرور ، و لكن منزلنا هذا حسب علمي مكان فاتر للغاية ، و أمثالك من الشباب عادة لا يحبون الأماكن الفاترة)

(و لكني أحببت هذا البيت ، كذلك إبنتك الشابة أغنيس تشاركني نفس الشعور)

(أغنيس ؟ هل بات منزلنا فاتر بالنسبة لها ؟ أنا لم أفكر بذلك من قبل)

بدأ يتجرع الخمر دون أن يحدثني مجددا ، كان يوري مايزال في المكتب حتى هذا الوقت من الليل ، و عندما ذهبت إليه وجدته يقرأ كتابا من القطع الكبير (ماذا تقرأ ؟)

(كتابا في القانون ، فأنا أدرس الحقوق و القوانين هذه الأيام)

(أتريد أن تصبح محاميا ؟)

(و لم لا ؟ فالمحامون يكسبون المزيد من المال ، أليس كذلك ؟)

(لا أدري ، و لكن لكي تصبح محاميا عليك أن تكون بغاية الذكاء)

(أوه لا ، فأنا رجل متواضع للغاية و أمي متواضعة أيضا حتى بعد وفاة زوجها والدي الراحل الذي ظل طوال عمره متواضعا

، و مع ذلك سأصبح محاميا في يوم من الأيام ..... لذا فقد تمسك السيد وايكفيلد بي ، إنه رجل جيد للغاية و أنا محظوظ بالعمل لديه)

تلوى يوري أمامي و هو جالس على الكرسي ، بدا لي منظره قبيحا للغاية ، و ما زاد من قبحه لي حديثه السمج عن أغنيس (أغنيس جيدة في تعاملها معي أيضا ، أنا أحبها ، إنها جميلة جدا ، أليس كذلك ؟)

نظر يوري إلى ساعته و تلوى أمامي مجددا (علي الذهاب الآن إلى منزلي الفقير ، لا بد أن تأتي و تراه و تقابل والدتي هناك حيث ستسر لزيارتك لنا ، أرجوك أن تزورنا)

(أشكرك ، سأفعل)

عاد هو إلى منزله الفقير بينما تمددت على سريري في منزل السيد وايكفيلد أحلم بيوري من شدة خوفي منه قبل أن يزول ذلك عند ذهابي إلى المدرسة الجديدة التي بدت لي مختلفة تماما عن سابقتها أضعافا مضاعفة حيث أحببتها كثيرا و صار لي العديد من الأصدقاء المنتمين إليها .

الفصل السابع

ذات يـوم و أنـا أمشـى نحـو المنـزل قابلـت يـوري مصـادفة علـى الطريـق (يـا للصـدفة الرائعـة سـيد كوبرفيلـد ، أنـا الآن متجـه صوب منزلي ، تعال معي و قابل أمي)

لـم أكـن أرغـب بالـذهاب إلـى منزلـه و مـع ذلـك عـدلت عـن رأيـي و مشيت معه (أمازلت تتعلم القانون؟)

(نعـم ، لكنـه صـعب للغايـة لوجـود بعـض الكلمـات المكتوبـة باللغـة اللاتينيـة فـي الكتـاب المقـرر علينـا ، و أنـا كمـا تعلـم لا أجيد اللغة اللاتينية)

(و لكننـي أجيـد اللاتينيـة كأهلهـا ، سـأعلمك إياهـا إن رغبـت بذلك)

تلـوى يـوري كالعـادة أمـامي (أوه كـلا سـيد كوبرفيلـد ، فأنـا رجـل متواضـع للغايـة ، و الأنـاس المتواضـعون غيـر قـادرين علـى تعلـم اللغة اللاتينية ، فهي للرجال المحترمين فقط)

عنـدما قابلـت السـيدة هيـب بـدت مثـل إبنهـا تمامـا بجسـدها النحيـل و ملابسـها السـوداء أيضـا ، و مـا إن جلسـت عنـدهما أمطرتنـي بأسـئلتها الفضـولية عـن عـائلتي و عـن لنـدن ، لـم أخبرهـا طبعـا عـن عملـي القـذر فـي مكتـب السـيد كونـان فـي لنـدن ،

سألتني عن السيد وايكفيلد و أغنيس أيضا (سيد وايكفيلد يشرب الخمر إلى حد الثمالة ، ذلك مضر بصحته يا بني ، أليس كذلك ؟)

(لا أعرف يا سيدتي ، لا أعرف)

ضقت ذرعا من السيدة هيب و أسئلتها الفضولية تلك ، كان بيتهم الكئيب مفتوحا على مصراعيه لمن هب و دب حيث مر منه رجل أعرفه عز المعرفة ثم وقف أمامه صارخا (كوبرفيلد ! بني !! ..... مكانك !)

لقد كان السيد ميكوبر قادما نحونا حيث أخبرته عن يوري هيب و والدته الفضولية فتصافحنا جميعا دون أن أشعر بالإرتياح لقدومه إلى هنا ، ظننت أنه سيحدثهما عن حياتي السابقة في لندن عندما كنتي فقيرا و مهمشا هناك ، فلم أرد لآل هيب أن يعرفوا شيئا عنها حتى أظل في نظرهم من علية القوم و من حسن حظي أنه لم يفعل ذلك ، فلم يحدثهما عن لندن و لا يحزنون بل عن زوجته الطيبة السيدة ميكوبر و عن فندقه الجديد الذي دعانا لتناول العشاء فيه (تعال غدا إلى هناك) .

في اليوم التالي شاهدت السيد ميكوبر و يوري على الرصيف يتحدثان معا حيث بديا لي ودودين للغاية كما لو كانا يعرفان بعضهما البعض منذ زمن طويل ، سألت السيد ميكوبر و نحن نتناول العشاء معه و بحضور السيدة ميكوبر في فندقه كما وعدناه في تلك الليلة عن علاقته بيوري فأجابني بأنه رجل ذكي للغاية و هو يحب ذكائه كثيرا ، أما السيدة ميكوبر فقد حدثتنا عن حياتهم القديمة في بلايموث (لم تكن عائلتي تحب زوجي من كثرة الديون التي أثقلت كاهله دون تسديدها كافة ، فإنتقلنا إلى كانتربري علّه يجد عملا هناك و نجني من ورائه بعض المال بعد طول إنتظار ، لكنه سيأتي حتما)

كان العشاء لذيذا للغاية لدرجة أننا شربنا بعده خمرا ساخنا مذاقه لا يقاوم و غنينا على إثره و من فرط سعادتنا الطاغية أنا و السيد ميكوبر مختلف الأغاني الشعبية آنذاك ، لكني حصلت على رسالة من السيد ميكوبر في صباح اليوم التالي يخبرني فيها بأنه مضطر إلى بيع فندقه بغية تسديد ما عليه من ديون لعدم حصوله على المال المطلوب من أحد أصدقائه كما وعده من قبل بذلك ، و بالتالي فهو مجبر على مغادرة كانتربري اليوم و الألم يعتصر قلبه على فراقه لي مودعا إياي وداعا حارا ملؤه الحزن و الشجن .

مـــرت الأعـــوام ســـريعا قضـــيتها فـــي المدرســـة و الإجتهـــاد فـــي دراســـتي دون أن يمنعـــاني مـــن زيـــارة أغنـــيس و والـــدها مـــرارا و تكـــرارا حيـــث أحببـــت كثيـــرا لطفهـــا و هـــدوئها الـــدائمين و إعتبرتهـــا بمثابـــة أختـــي الغاليـــة ، عكـــس والـــدها الســـيد وايكفيلـــد الـــذي أهمـــل عملـــه جـــراء ســـكره و إســـرافه فـــي شـــرب الخمـــر تاركـــا أمـــور مكتبـــه لســـكرتيره يـــوري المجتهـــد فـــي عملـــه و العـــارف بأســـرار سيده الخفية .

مـــا إن إنتهـــت الدراســـة حتـــى طـــرت مســـافرا إلـــى عمتـــي فـــي بلايمـــوث لزيارتهـــا و الإطمئنـــان عليهـــا (مـــاذا ســـتفعل الآن يـــا دافيد ؟)

(لا أعـــرف يـــا عمتـــي ، لقـــد فكـــرت بالعمـــل خـــلال العطلـــة الصـــيفية ، و لكني لا أعرف ما نوع العمل الذي بإمكاني فعله ؟)

(عمومـــا ، خـــذ بنصـــيحتي ، أمامـــك العطلـــة الصـــيفية بطولهـــا يمكنـــك التفكيـــر مـــن خلالهـــا بالعمـــل المناســـب ، أمـــا الآن فأخلـــد إلـــى النـــوم حتـــى تســـتقيظ مبكـــرا مـــن أجـــل الســـفر إلـــى بيجـــوتي فـــي يرموث)

(و هو كذلك ، تصبحين على خير)

و مع ذلك و بدلا من السفر إلى يرموث قررت الذهاب إلى لندن أولا عبر الحافلة و لكن هذه المرة و أنا سعيد للغاية لإرتدائي أفخر الملابس الجديدة حيث بدوت عليهن حسن المظهر و من علية القوم ، توقفت عند أول فندق في المدينة لحظة وصولي إليها حيث يوجد بجواره مطعم خاص به ، و أثناء جلوسي بإحدى طاولاته القليلة و طلبت العشاء من النادل إذ بي أرى شابا أعرفه من قبل يقف في الجهة المقابلة يتناول عشاءه دون أن يلتفت إلي ، لقد كان سريفورث زميلي في الدراسة بشحمه و لحمه ، توجهت إليه سائلا إياه ما إذا كان يذكرني أم لا ؟ بداية أنكر معرفته بي ثم ما لبث أن غير رأيه صارخا في وجهي (بلى أذكرك ، سيد كوبرفيلد ؟)

(بلى يا عزيزي ستريفورث بلى)

تصافحنا بالأيدي مصافحة حارة خارج المدرسة للمرة الثانية و تناولنا العشاء معا ، و في صباح اليوم التالي تناولنا الإفطار معا في المطعم (مازلت شابا كما أنت لم تتغير أبدا ، تعال إلى منزلي اليوم و أمكث معي)

(و لكنني اليوم راحل إلى يرموث)

(أجل سفرك إلى يرموث في الغد و أبقى معي هذه الليلة فقط ، أرجوك)

إبتسمت له ضاحكا و لم أرفض طلبه بالمكوث في منزله الكائن في ضاحية هايفغات القريبة من لندن حيث كانت تقيم هناك والدته العجوز بقامتها الطويلة و طباعها المتكبرة و معها عجوز متكبرة مثلها غريبة الأطوار و تدعى روزا دارتل و التي لم أشعر بإرتياح دائم نحوها بعينيها القاسيتين و الجرح الغائر على وجهها على هيئة علامة بيضاء اللون قبيحة المنظر .

تحدثت معهم عن يرموث و أهلها الطيبين ، فسألتني أم ستريفورث عما إذا كانوا يحبونهم أم لا ؟ فرد عليها إبنها ردا أثار إستغرابي للغاية عندما وصفهم بالأجلاف الوقحين السيئي الطباع القساة القلوب رغم اني أعلم علم اليقين بأن هذا الكلام غير صحيح و أنهم ليسوا كذلك كما وصفهم ستريفورث حسب زعمه ، و مع ذلك لم أرد عليه و آثرت الصمت و عوضا عن هذا سألته عن الجرح الموجود على خد روزا دارتل الأيسر ، فثارت ثائرته من شدة الغضب العارم للحظة ما لبث أن إنطفأت حممه الملتهبة إلى سيل من الدموع المنهمرة من شدة حزنه العميق (أنا السبب فيما حدث لها أنا السبب ، اهئ اهئ اهئ)

(أنت ؟! كيف ؟!!)

(عندما كنت صغيرا قذفتها بشئ صلب على فمها ، في غاية الأسف الشديد عليها ، اهئ اهئ اهئ)

مكثت هناك لبضعة أيام أخر ، ثم رحلت إلى يرموث مصطحبا ستريفورث معي ، و عند وصولنا إليها تركته في الفندق كي يستريح متجها نحو منزل باركس لرؤية بيجوتي مجددا ، و عندما وصلت وجدتها هناك دون أن تتعرف علي مندهشة من منظري الأنيق (آه يا عزيزتي بيجوتي ، لقد بلغت من الكبر عتيا ، ألم تعرفيني بعد ؟)

(أوه صغيري دافيد)

إحتضنتني بحرارة و هي تجهش بالبكاء فرحا بقدومي قبل أن تجفف دموعها الغزيرة بثوان معدودات ، ثم توجهنا كلانا إلى زوجها المريض باركس ممددا على سريره دون أن يشعر بأي تحسن يذكر ، و مع ذلك أعطى زوجته بيجوتي بعض النقود و تناولنا معه طعام العشاء من النوع الفاخر ، بعد ذلك وصل ستريفورث إلى المنزل ٠ ففرحت بيجوتي بقدومه كثيرا و سعدت بلقائه للمرة الأولى قبل أن أغادر معه منزل السيد باركس متوجهين نحو السيد بيجوتي ، و قبيل وصولنا إلى

منزلــه المتواضــع تنــامى إلــى مســامعنا صــراخه و ضــحكاته العاليــة تــدوي فــي أرجــاء المكــان ، و عنــدما وصــلنا إليــه وجــدنا هــام يمســك بيــد إيميلــي بوجههــا المحمــر مــن شــدة الخجــل و هــي تنظــر إلــى الأســفل فــي شــرف إســتقبالنا ! فصــرخ الســيد بيجــوتي فــي وجهنــا عنــد بــاب المــدخل و هــو فــي غايــة الســعادة (تفضــلا بالــدخول ، لــدي مفاجــأة ســارة لكمــا ، هــام و إيميلــي يريــدان الزواج)

(رائع سيد بيجوتي ، و متى عرفت بذلك ؟)

(منذ دقيقة فقط)

بــدأ هــام بــالكلام أمامنــا شــارحا لنــا تفاصــيل هــذا الخبــر الســعيد بحماســة مفرطــة للغايــة (لقــد أحببــت إيميلــي و مازلــت أحبهــا هــذه اللحظــة علــى الــرغم مــن صــغر ســنها ، و عنــدما عرضــت عليهــا الزواج حتى فاجئتني بالموافقة دون تردد !)

شــربنا جميعــا الخمــر نخــب هــذه المناســبة الســعيدة علــى قلوبنــا حيــث تعالــت أصــوات أحاديثنــا و ضــحكاتنا المدويــة حتــى عنــان الســماء المطــرزة بــالنجوم ، و رغــم ضــجيج جلســتنا الصــاخبة تلــك إلا أن إيميلــي فــاجئتني بصــمتها المريــب صــمت القبــور و

نظراتها الدائمة صوب ستريفورث و كأنها على ما يبدو لم تكن راضية عما حدث .

تأخر الوقت سريعا دون أن ندري و طلب ستريفورث الإذن من السيد بيجوتي بمغادرة المكان ، فتصافحنا بالأيدي و ودعناهم ، و أثناء عودتنا إلى الفندق أبدى ستريفورث من عدم رضاه على هذا الزواج أمامي (أشعر بالأسف من زواج إيميلي من هذا الرجل فهي تستحق أن تكون من نصيب سيد محترم من علية القوم و ليس هام الخشن البليد السئ الطباع)

صرخت في وجهه غاضبا (أنت مخطئ يا ستريفورث ، هام شخص رائع للغاية ، أنت لا تفهمني البتة)

مكثت في منزل باركس بمفردي دون ستريفورث الذي ظل لوحده في الفندق حيث خرجت مع الصيادين من غير أن أراه معظم الوقت ، ذات ليلة زرته في مقر إقامته بالفندق ، و أثناء جلوسنا قرب المدفأة رأيته بغاية الحزن و الأسى (ما خطبك؟)

(كنت أفكر ؟)

(بماذا ؟)

(بأبي الذي توفي مؤخرا ، إني بحاجة إليه الآن أكثر مما مضى ، لقد أفسدت أمي تربيتي ، و على إثر تربيتها الفاسدة تحولت إلى رجل سئ للغاية يشعر بالتعاسة التامة)

(عما تتكلم ؟)

وقف مبتسما أمامي (لا تشغل بالك بهذا الموضوع يا عزيزي ، هيا بنا نتمشى)

ما إن غادرنا الفندق حتى فاجأني بتفاخر مبالغ فيه أنه إشترى قاربا له (في يرموث ؟ و لكنك نادرا ما تأتي إلى هناك !)

(لا عليك ، فهام يحتفظ بالقارب لي)

(حقا ؟! يا لك من رائع ، لقد أعطيته القارب إذن ؟!!!)

(كلا يا عزيزي ، أنا لم أعطه القارب بل كلفته بالإعتناء به ريثما أعود إليه ، لقد أسميت القارب (إيميلي الصغيرة))

لم يخبرني ستريفورث برجوع التعاسة إليه مجددا ، فلقد مر الوقت سريعا و كلانا عاد إلى منزل باركس قبل أن يوفقنا هام في الخارج (أرجوكما ، لا تدخلا إلى البيت ، فإيميلي تتحدث مع إمراة تطلب منها المساعدة)

و مع ذلك فتحت بيجوتي الباب لنا على وجه السرعة (يمكنكما الدخول الآن)

ما إن دخلنا البيت حتى شاهدنا أمامنا إمراة شابة تدعى مارثا إندلز و هي تشرح باكية لإيميلي الجالسة بجوارها مشكلتها الصعبة (لقد كنت سيئة للغاية لدرجة أن والداي لم يعودا يطيقان رؤيتي ، و الناس في يرموث يكرهونني ، يجب أن أغادرها إلى لندن ، ستكون أفضل مكان بالنسبة لي بدلا من هنا)

(و ماذا ستفعلين في لندن يا مارثا ؟)

(سأجد عملا هناك ، و لكن يلزمني بعض النقود)

(هاك النقود ، يمكنك الذهاب إلى لندن)

(أشكرك يا إيميلي على حسن لطفك معي و لن أنسى معروفك هذا مهما حييت)

غادرت مارثا المنزل ، و ما إن أغلقت الباب وراءها حتى أجهشت إيميلي بالبكاء أمامنا (اهئ اهئ اهئ ، أنا أيضا مثل مارثا ، سيئة للغاية)

(كلا يا عزيزتي إيميلي ، أنت طيبة القلب و جميلة للغاية)

(كـــلا يـــا عزيـــزي هـــام ، أنـــا لســـت كـــذلك ، فمازلـــت أشـــعر بالتعاســـة حتـــى هـــذه اللحظـــة ، أرجـــوك ســـاعدني لكـــي أكـــون طيبـــة القلب)

مـــا إن إحـــاط هـــام إيميلـــي بذراعيـــه الحـــانيتين حتـــى هـــدأ مـــن روعهـــا ، فـــي تلـــك الأثنـــاء بـــدت إيميلـــي بالنســـبة لـــي كســـتريفورث فـــي كلامـــه و تصـــرفاته دون أن أســـتوعب لغـــز التشـــابه القـــائم بينهمـــا قبل أن أدرك السبب الحقيقي وراء ما سبق لاحقا .

الفصل الثامن

ما إن عدنا إلى لندن حتى أخبرتني عمتي بحصولها على عمل لي بعدما دفعت ألف جنية لسبنلو و جوركينز كي يعلماني القانون حيث أردت أن أكون محاميا ، كما عثرت عمتي أيضا على مسكن لي تملكه إمرأة بدينة الحجم لطيفة للغاية تدعى سيدة كروب حيث كانت تنظفه و تطبخ الطعام لي ، و مع ذلك لم أشعر بالإرتياح بإقامتي في لندن ، فلقد عانيت من الوحدة في هذه المدينة الموحشة للغاية و لم يكن لدي فيها أي أصدقاء بالمرة ، حتى صديقي الوفي ستريفورث لم يزرني قط قبل ذلك اليوم الذي قابلته في إحدى شوارعها الخلفية بصحبة إثنين من أصدقائه حيث أعطيتهم عنوان منزلي الجديد و سألتهم المجئ إلي لتناول العشاء ، لقد كان الطعام لذيذا للغاية و إن كنت بعد ذلك قد أكثرت من شرب الخمر إلى حد الثمالة و الصراخ الهستيري في وجوههم (المسرح هنا مكان جميل للغاية ، ما رأيكم بالذهاب إليه ؟)

قررنا الذهاب إلى المسرح لمشاهدة إحدى المسرحيات الجديدة و إن كنت بالكاد أقف على قدمي بصعوبة بالغة من كثرة الخمر الذي شربته خلال العشاء ، ما دفع ستريفورث و صديقاه إلى حمل ذراعي على أكتافهم سيرا على الأقدام

حتى بلغوا بي قاعة العرض و جلسنا على المقاعد العلوية ، و مع ذلك و تحت تأثير الكحول سقطت من مقعدي ضاحكا و متأوها من الألم بمنتهى الحماقة و كانت تجلس بجواري فتاة جميلة جدا لم أتمكن من رؤية حسنها الأخاذ أو الكلام معها إلا بشق الأنفس لأكتشف بعد جهد جهيد بأنها لم تكن سوى أغنيس إبنة السيد وايكفيلد (أغنيس ؟! يا للمفاجأة !!)

(دافيد ؟! ما هذه التصرفات الحمقاء الصادرة منك الآن ؟!! أرجوك يا عزيزي عليك العودة إلى منزلك ثم الذهاب إلى السرير ، أرجوك)

(حسنا سأفعل)

ما لبثت أن خرجت من المسرح بعدما أزعجت العديد من المتفرجين الساخرين من تصرفاتي الثملة عائدا إلى منزلي بصحبة ستريفورث الذي وضعني على السرير ، و في صباح اليوم التالي شعرت بصداع في رأسي جراء شربي الكثير من الخمر ليلة البارحة و تذكرت حينها أغنيس حيث شعرت بالخجل الشديد نحوها على ما فعلته بالأمس ، و لكنها أرسلت لي فيما بعد رسالة تدعوني من خلالها إلى الإلتقاء بها في منزل ووتربروك ، و من شدة خجلي نحو أغنيس لم أرد الذهاب إلى منزل ووتربروك كما أخبرتني من قبل ، و مع ذلك

عـدلت عـن رأيـي و ذهبـت إلـى هنـاك لمقابلتهـا لأفاجـأ بأنهـا تكـن غاضـبة منـي حيـث رحبـت بـي بابتسـامة عريضـة علـى شـفتيها (صباح الخير دافيد)

(أوه أغنـيس ، إنـي شـديد الخجـل ممـا فعلتـه ليلـة البارحـة عنـدما كنـت ثمـلا أتصـرف تصـرفات حمقـاء لا تليـق بـي داخـل المسـرح ، أرجوك سامحيني)

(لقـد سـامحتك ، لـذا إنسـى مـا حـدث فـي المسـرح ليلـة البارحـة و لا تشـغل بالـك بـه حتـى لا تكـدر مـن صـفو حياتـك علـى الـرغم من مرافقتك لصديق سئ للغاية)

(صديق سئ للغاية ؟ من يكون؟)

(و من غيره ؟ ستريفورث طبعا ، إنه رجل فاسد)

(أوه أغنيس ، إنه صديقي المفضل)

(أعـرف هـذا ، و مـع ذلـك أنـا لا أطيقـه البتـة ..... أنـا آسـفة دافيد لم أكن أقصد ، فسامحني على فظاظتي تلك)

(لا عليك أغنيس شريطة ألا نتحدث عن ستريفورث)

(و هو كذلك ..... أخبرني يا دافيد ، هل رأيت يوري ؟)

(كلا ، هل هو في لندن ؟)

بـــدا وجههـــا تعيســـا للغايـــة (نعـــم ، و للأســـف أضـــحى يـــوري يمتلـــك نصف أعمال أبي هذه الأيام ، هل تعلم ذلك ؟)

(يوري ؟! غير معقول !!)

(بلـــى هـــو كـــذلك ، لقـــد إســـتغل إدمـــان والـــدي علـــى الشـــراب كـــي يحـــل محلـــه فـــي إدارة أعمالـــه حيـــث أعطـــاه نصـــفها ، اهـــئ اهـــئ اهئ)

(تبا لك يا يوري الكلب .... أرجوك يا أغنيس ، لا تبكي)

جففـــت دموعهـــا قبـــل مجيـــئ الســـيدة ووتربـــروك إلـــى حجرتـــي (هـــل ستتناول العشاء هنا سيد كوبرفيلد ؟)

(أجل سيدة ووتربروك)

تناولـــت العشـــاء مـــع العديـــد مـــن الضـــيوف رغـــم انـــه بـــدا مذاقـــه فـــاترا للغايـــة بالنســـبة لنـــا ، و علـــى إثـــر ذلـــك لـــم أتبـــادل معهـــم الأحاديـــث و لا الجلـــوس قـــرب أغنـــيس بعـــدما جلـــس يـــوري بجانبهـــا عنـــد المائـــدة بعيـــدا عنـــي ، ثـــم ســـمعت بإســـم صـــديقي القـــديم تريـــدل حيـــث كـــان مـــن بـــين الحضـــور ، فتحـــدثنا معـــا عـــن المدرســـة و عـــن ذكرياتنـــا القديمـــة فيهـــا و عرفتـــه بصـــديقتي أغنـــيس التـــي كانـــت ســـعيد لرؤيتهـــا مجـــددا ، بعـــد ذلـــك إلتقينـــا بيـــوري الـــذي أراد الســـير مـــع صـــديقي العزيـــز تريـــدل أســـفل الشـــارع دونمـــا إعتـــراض منـــي

خوفا منه ، و مع هذا سألته عن السيد وايكفيلد (إنه مريض للغاية جراء شربه الكثير للخمر

و أضاعة نقوده من أجله و أنا بحاجة للمساعدة المادية كي أساعد أغنيس أيضا في محنتها ، إنها جميلة حقا ، أليس كذلك ؟ متى ستتزوج ؟ من ستتزوج ؟ لا أعرف)

بدت على شفتيه إبتسامة لئيمة إرتسمت على وجهه القبيح عرفت من خلالها أنه يريد الزواج منها ، فشعرت بالغضب الشديد مما قال و لكني كتمته في صدري و لم أرد ردا حازما على كلامه السخيف السالف الذكر رغم انه مازال يؤذي السيد وايكفيلد و أغنيس معا حتى هذه اللحظة ، لذا أثرت عدم الكلام معهم أو زيارتهم مفضلا تناول العشاء بمفردي في المنزل .

كان ستريفورث بأكسفورد و لم أعد أر تريدل مجددا ، في تلك الأثناء كنت أذهب إلى المكتب كل يوم لتعلم مبادئ علم القانون من السيد سبنلو حيث دعاني في أحد الأيام لزيارته (سيد كوبرفيلد ، هلا أتيت لزيارتي يوم السبت ؟ نحن نعيش خارج لندن)

(شكرا جزيلا على حسن ضيافتك لي و لكن ....)

(أبقى السبت و الأحد معنا حتى غد الإثنين)

(سيكون ذلك رائعا للغاية)

(سنذهب إلى هناك معا بعربتي طبعا)

ذهبنا إلى منزله الكائن خارج لندن بإحدى ضواحيها البعيدة يوم السبت ، لقد كان منزلا كبير الحجم بحديقته الكبيرة طبعا ، و ما إن دخلنا حجرة الضيوف حتى قابلت متفاجئا إمرأتين أمامي للمرة الأولى ، إحداهما شابة جميلة للغاية مجهولة بالنسبة لي و الأخرى عجوز شمطاء في خريف العمر أعرفها من قبل معرفة وثيقة جدا (سيد كوبرفيلد ، أعرفك بإبنتي دورا و بجوارها مربيتها الفاضلة الآنسة موردستون)

(لا داعي يا سيد سبنلو بأن تعرفني بالآنسة موردستون فأنا أعرفها من قبل ، كيف حالك آنسة موردستون ؟)

(بخير و الحمدالله سيد كوبرفيلد)

لم أكترث بالآنسة موردستون و تصرفاتها السمجة من شدة إنشغالي بدورا التي أحببتها حب العبادة و بدت لي شمسا وهاجا ينير طريقي المظلم في درب الغرام من أول نظرة بعدما سحرتني بوجهها الجميل و شعرها البراق حتى و أنا داخل غرفة نومي حيث لم أكن أفكر بأي شئ آخر سواها ، و عندما

نزلت لتناول العشاء معهم لم أضع لقمة واحدة في فمي و لم أصغ لأحاديثهم الجانبية من شدة إنبهاري بدورا ، و ما إن تناولنا العشاء و غادر الناس مائدة الطعام حتى فاجأتني الآنسة موردستون بالحديث معي (إسمعني جيدا سيد كوبرفيلد)

(ما الأمر آنسة موردستون ؟)

(أنا لا أحبك و أحب عمتك مثلما أنت لا تحبني أيضا)

(هذا صحيح)

(لكن هذا ليس معناه ألا تسود المودة و المحبة بيننا داخل هذا البيت)

(طبعا ، لن نتشاجر أبدا)

(أكيد لن نتشاجر ، فأنا على الدوام لطيفة للغاية)

(طابت ليلتك آنسة موردستون)

ما إن تمددت على سريري حتى حلمت بدورا أحلاما جميلة دفعتني إلى النهوض مبكرا في صباح اليوم التالي لملاقاتها في حديقة المنزل حيث رحبت بصوتها الساحر للقلوب بقدومي إليها (صباح الخير)

(صباح الخير آنسة دورا ، سمعت أنك سافرت إلى فرنسا ، أليس كذلك ؟)

(بلى ، فلقد عدت إلى بريطانيا مؤخرا من هناك ، هل سافرت إليها ؟)

(كلا يا عزيزتي ، فلقد أردت البقاء هنا في بلدي بريطانيا)

(لماذا ؟)

(لأنك أردت البقاء فيها أيضا)

(أوه سيد كوبرفيلد)

ساعتها أحمر وجهها من شدة الخجل قبل أن تضحك مما قلته للتو حيث كانت تمسك بكلب صغير للغاية تتحدث إليه بمنتهى الود و اللطف (عزيزي جيب ، سيد كوبرفيلد يقول أشياء رائعة ، أليس كذلك ؟ ..... هلما معي سيد كوبرفيلد نتأمل الأزهار الجميلة)

مشيت معها في أرجاء الحديقة و تأملنا الأزهار و الورود فيها قبل أن أنشغل عنهن بتأملي الدائم لدورا التي أراها أجمل منهن أضعافا مضاعفة قبل أن تسألني سؤالا حرجا عكر صفوي (هل الآنسة موردستون صديقتك)

(كلا)

(أنا مسرورة للغاية من ردك هذا ، فأنا لا أطيقها بتاتا ، فهي تتبعني كظلي دون توقف ..... أليس كذلك يا جيب ؟)

قبلت دورا كلبها الصغير جيب و تجولت معي في أرجاء الحديقة قبل أن تنادينا الآنسة موردستون (صباح الخير ، هلما معي لتناول الفطور)

سأظل أتذكر يوم الأحد هذا مهما حييت ، لقد كان يوما سعيدا للغاية بالنسبة لي حيث جلست مع دورا و تبادلنا أطراف الحديث طوال اليوم رغم عدم تجاهلي لوجود الآنسة موردستون بالقرب منا دون أن تجرؤ على تعكير صفو لحظاتنا الحلوة معا كما وعدتني من قبل بعدم إفتعال المشاكل معي داخل هذا المنزل ، و ما إن عدت إلى لندن حتى شعرت بالتعاسة و الحزن الشديدين إلى حد تجوالي المتكرر لشوارعها العليا و السفلى ، و عندما أردت رؤية دورا في إحدى الأيام أشرت بيدي إلى عربتها المارة سريعا من أمامي دون أن يمنعها ذلك من التلويح بمنديلها لي ، فشعرت بسعادة غامرة جراء ذلك ، و قد لاحظت السيدة كروب هذا عندما رأتني غارقا في غرامها الساحر (لقد تغيرت كثيرا سيد كوبرفيلد !)

(أنا ؟)

(نعم أنت ! هل أنت بخير ؟)

(نعم بخير سيدة كروب)

(سيد كوبرفيلد ، أنا أعلم منك بالشباب و ما يدور في خلدهم ، لقد قابلت فتاة جميلة للغاية و وقعت في حبها ، أليس كذلك ؟)

الفصل التاسع

مازلت وحيدا في المنزل ، لذا قررت زيارة تريدلر في منزله البائس بإحدى الشوارع الفقيرة بلندن ، صعدت إلى السلالم حتى وصلت إلى المنزل و سحبت الجرس ليخرج تريدلر إلي فرحا (كوبرفيلد ! صديقي العزيز ! تفضل بالدخول ، من حسن حظك أنه بالعادة ليس لدي أي زوار في ذلك الوقت ، أنت زائري الوحيد فحسب خلال هذا الشهر)

دخلنا غرفته الصغيرة الحجم بطاولتها الصغيرة و عليها أقلام الحبر و الورق (ماذا تعمل هذه الأيام ؟)

(أدرس القانون ، أنت تعلم جيدا بأني غادرت المدرسة لأنه لم يكن لدي أية نقود ، لذا عملت بجد و حصلت على بعض النقود ، فدفعتها لذلك المحامي الذي سيعلمني مبادئ القانون و أصبح محاميا مثله أيضا)

(و متى ستنتهي من دراسة القانون و تصبح محاميا ؟)

(سيستغرق وقتا طويلا ، لا أعرف)

بدا تعيسا أمامي للحظات قبل أن ترتسم السعادة على وجهه مجددا (أردت الزواج ، و لكن علي أنا و صوفي أن ننتظر ..... ها ها ها ، إنها فتاة جيدة و جميلة و لطيفة للغاية أيضا

، طالما نحب بعضنا البعض حب العبادة سننتظر و نتحمل الصعاب)

(أنا مسرور لأجلك)

(غرفتي ليست رائعة للغاية ، و لكنها لا تكلف الكثير من المال و لدى جار طيب أيضا)

فإذا بنا نسمع صوتا ينادي تريدلر من خارج الباب (أهلا و سهلا بكم)

(من هذا ؟)

(هذا جاري الطيب الذي حدثتك عنه قبل قليل ، السيد ميكوبر)

ما إن دخل السيد ميكوبر غرفة تريدلر و رآني حتى صرخا فرحا (كوبرفيلد ! بني ! يا للمفاجأة السارة !!)

صافحني السيد ميكوبر بحرارة بالغة (ستكون السيدة ميكوبر سعيدة جدا لرؤيتك)

(كيف حالك سيد ميكوبر ؟)

(مازلنا كما تركتنا يا كوبرفيلد فقراء فقرا مدقعا تلاحقنا الديون ، و لولا وقوف جارنا الطيب تريدلر إلى جانبنا في العثور على مصدر جديد للنقود و الرزق لفقدنا الأمل مجددا ، ها ها ها)

شعرت بالسعادة و السرور لرؤية السيد ميكوبر مرة أخرى ، ما دفعني إلى دعوة آل ميكوبر و تريدلز لتناول العشاء في بيتي حيث أعد لنا السيد ميكوبر شرابا ممزوجا من الخمر و الفواكه الطازجة ، كان مشغولا للغاية و هو يغني منتشيا بمذاق شرابه المبتكر قبل أن يفقد طعمه اللذيذ عند إحضار العشاء لنا (يبدو أن سيدة كروب لم تطبخ هذا اللحم جيدا ، مازال نيئا بلونه الأحمر القاني ، سامحوني على ذلك)

(لاعليك يا بني لا عليك ، لا تقلق بشأن اللحم ، سنقطعه إلى قطع و نطبخه على النار مجددا)

طبخ السيد ميكوبر اللحم مرة أخرى حيث كان مذاقها هذه المرة رائع للغاية ، و شربنا معا المزيد من الخمر إلى حد الثمالة و غنينا أحلى الأغاني المحلية و قضينا وقتا ممتعا (ماذا تعمل الآن سيد ميكوبر ؟)

(مازلت عاطلا عن العمل ، لكن سأحصل لاحقا على عمل مناسب لي)

(إلا يمكنك أن تقترض بعض المال ؟)

(لقد إقترضت بعضا منه قبل أن أنفقه)

في تلك اللحظة ،كان وجه السيد ميكوبر حزينا للغاية قبل أن يعود إلى إبتسامته المعهودة مجددا (لقد صرت شابا وسيما يا كوبرفيلد ، متى ستتزوج ؟ هل تعرفت على فتاة ما ؟)

(نعم سيد ميكوبر)

(إني مسرور لسماع ذلك ، هل هي جميلة ؟)

(إنها جميلة للغاية)

ما إن تأخر الوقت حتى غادرت السيدة ميكوبر و تريدلز و السيد ميكوبر الذي أعطاني رسالة و طلب مني عدم قراءتها إلا بعد مغادرته من منزلي ، و عندما ذهبت إلى غرفتي سمعت بعض الجلبة المزعجة الصادرة من السلالم و صوتا ينادي بإسمي عما إذا كنت في منزلي أم لا ؟ لقد كان صديقي ستريفورت حيث زارني زيارة خاطفة لم أتوقعها من قبل ، فصافحني بحرارة بالغة (ها ها ها ، لقد فاجأتك يا عزيزي ، أليس كذلك ؟)

(بلى ، هو كذلك يا عزيزي ؟)

(مـا هـذه البقايـا مـن الخبـز و الشـراب علـى الطاولـة ؟ آه ، لقـد تناولـت العشـاء مـع الأصـدقاء كالعـادة مـن دونـي ، يبـدو أنـك مازلت تهزأ بي على الدوام)

(نعـم ، لقـد كـانوا أصـدقاء قـدامى مـن بيـنهم تريـدلز ، هـل تـذكره ؟)

(تريدلز ؟ كلا لا أذكره)

(لقد كان معنا في المدرسة)

(آه ! ذلك الفتى الأحمق ؟! نعم أتذكره)

(أين كنت غائبا عنا طوال هذه المدة ؟)

(آه ، كنـت فـي يرمـوث ، قريبـا إيميلـي سـتتزوج مـن هـام ، بالمناسـبة ، لـدي رسـالة لـك مـن بيجـوتي تتعلـق بزوجهـا المـريض باركس إنه يحتضر ، تفضل)

قـرأت الرسـالة و شـعرت بالأسـى علـى بيجـوتي (إنهـا حزينـة للغايـة و علـي الـذهاب إليهـا فـي يرمـوث لمواسـاتها ، فهـي تريـد رؤيتـي في الحال)

(أجـل ذهابـك إلـى يرمـوث إلـى مـا بعـد الغـد ، و دعنـا أولا نـذهب إلى هايفات)

(و هو كذلك)

(علي الذهاب إلى منزلي الآن ، أمشي معي)

بدا على صوته الإهتياج و التعاسة الشديدين من أثر شربه الكثير من الخمر إلى حد الثمالة ، ما إن مشينا في الشوارع معا نتبادل أطراف الحديث حتى عاد إلى إهتياجه مجددا ، ثم تركته و شأنه عائدا إلى منزلي ، و عندما عدت بدأت بقراءة رسالة السيد ميكوبر في الحال (عزيزي كوبرفيلد ، لقد فقدت كل نقودي بمن فيهم النقود التي إقترضتها من تريدلز ، لقد أذيت تريدلز هذا الرجل الطيب بتصرفي اللامسئول ، أنا رجل سيء للغاية و خجل جدا منك و لن آراك مجددا ، ويلكنز ميكوبر)

شعرت بالحزن حيال تريدلز و السيد ميكوبر معا ، فطلبت من السيد سبنلو منحي عطلة أسبوع كي أذهب إلى هايفات ، و هناك رأيت روزا دارتيل (أعرف ستريفورث جيدا ، إنه غريب الأطوار و ثائر من شدة الغضب ، ماذا يفعل هذه الأيام و خصوصا في يرموث ؟)

(لا أعرف)

(إنه غريب الأطوار ، أنا لا أحبه)

فـي تلـك الليلـة كنـا نتنـاول العشـاء معـا ، فطلـب سـتريفورث مـن روزا الغنـاء (لمـا أنـت تعيسـة هكـذا يـا روزا ؟ لـديك صـوت جميـل ، غني لنا)

غنـت روزا لنـا غنـاء غريبـا علـى مسـامعي ، و عنـدما إنهـت وصـلتها الغنائيـة حتـى إقتـرب سـتريفورث منهـا مهئنـا (رائـع يـا روزا رائـع) و مـا إن لمـس شـعرها حتـى إبتعـدت عنـه صـارخة فـي وجهـه بغضـب (لا تلمسـني ، لا تلمسـني) فركضـت خـارج الحجـرة (مـا خطبها يا ستريفورث ؟)

(لا أعـرف ، كـل الـذي أعرفـه أنهـا مازالـت تتصـرف بغرابـة فـي بعض الأحيان)

(لقـد تـأخر الوقـت ، و علـي الـذهاب مبكـرا إلـى يرمـوث صـباح الغد ، طابت ليلتك يا ستريفورث)

(طابت ليلتك دافيد)

إبتسـم لـي إبتسـامة حزينـة للغايـة (دافيـد ، أنـا لسـت رجـلا سـيئا للغاية كما يعتقد الناس عني ، تذكر ذلك)

(لا عليـك يـا عزيـزي ، فأنـت سـتظل صـديقي المفضـل مهمـا حييت)

ذهبت متأخرا إلى يرموث ، و ما إن وصلت إلى هناك حتى فات الآوان و قضى زوج بيجوتي باركس نحبه .

الفصل العاشر

كان يوما باردا عندما شيعنا جثمان باركس و شاركنا في جنازته التي لم يحضرها سوى عدد قليل من الناس جراء البرد القارس ، و بعد الجنازة ذهبت إلى منزل بيجوتي حيث فكرت بشأن زوجها الفقير و وفرت الكثير من المال من أجله ، فقد وفرت ثلاثة آلاف جنية استرليني ألف جنية منها ألفان جنية لزوجته و صديقتي العزيزة بيجوتي التي كانت تعرف طبعا بالسيدة باركس و ألف جنية لشقيقها السيد بيجوتي ، كان الطقس في الليل باردا و ممطرا في أرجاء يرموث ما عدا منزل السيد بيجوتي الدافئ و المريح جراء نار مدفأته الكبيرة و المصباح بفحمه المحترق الكائن فوق النافذة المجاورة لها ، و مع ذلك ماتزال السيدة جيميدج كثيرة الشكوى و غير سعيدة لأنها لاتزال تعاني من الوحدة بسبب غياب إيميلي عنها إثر زواجها ، فهدأ السيد بيجوتي من روعها و طمأنها بقدوم إيميلي إلى المنزل عما قريب ، ما إن فتح الباب حتى دخل هام علينا بمفرده مرتديا قبعة كبيرة للغاية حجبت وجهه عنا ! طلب مني مقابلته خارج المنزل بعيدا عن الآخرين فما كان مني إلا أن لبيت طلبه في الحال (ما الأمر يا هام ؟)

(إنها إيميلي سيد دافيد)

(إيميلي ؟ هل هي مريضة ؟)

(شش إخفض صوتك حتى لا يسمعنا أحد ، كلا ليست مريضة بل رحلت)

(رحلت ؟ إلى أين ؟)

(رحلت إلى مكان بعيد ، أوه)

أدار وجهه بعيدا عني يسأل نفسه هامسا همسا شديدا (ما الذي يمكنني قوله للسيد بيجوتي ؟ كيف يمكنني أن أخبره بهذا الأمر الشديد الوطأة عليه ؟)

وصل السيد بيجوتي إلى المنزل ، و ما إن رأى وجه هام حتى إبيض وجهي من الغضب صارخا فيه (هام ! إيميلي ؟ أين إيميلي ؟)

لم يتمالك هام نفسه من الصدمة ، فسقط ظهره مقابل الحائط و قمت و السيد بيجوتي بمساعدته و حمله على أكتافنا إلى الداخل (هذه رسالة منها سيد دافيد ، إقرأها لي ، فأنا لست قادرا على قراءتها مجددا)

كانت الرسالة قصيرة للغاية ، و مع ذلك قرأتها أمام الجميع بصوت عال (سأرحل بعيدا عن هنا ، أعلم أن قراري هذا

خـــاطئ للغايـــة ، لـــن أعـــود إلـــى هنـــا مجـــددا ، تـــذكروني و أنســـوني ، لا أســـتطيع الـــزواج مـــن هـــام ، و لكنـــي مازلـــت أحـــبكم أجمعـــين ، أنا آسفة جدا ، سامحوني جميعكم .

إيميلي)

جلـــس الســـيد بيجـــوتي فجـــأة علـــى الكرســـي مـــن هـــول الصـــدمة و قـــد إحمـــر وجهـــه مـــن شـــدة الغضـــب (مـــن الرجـــل الـــذي رحلـــت معـــه ؟ من هو ؟ تكلم يا هام ، أريد أن أعرف)

(إنه ستريفورث ، لقد رحلت مع ستريفورث)

(ستريفورث صديقي الذي أحضرته إلى هنا ؟!)

(سيدة جيميدج ، أعطني معطفي)

(إلى أين دانيال[٤] ؟)

(أبحـــث عـــن إيميلـــي ، و لكـــن قبـــل ذلـــك ســـأذهب صـــوب قـــارب ســـتريفورت القريـــب منـــا و أحطمـــه شـــر تحطـــيم ، ثـــم أبحـــث عنهـــا في كل مكان ، يجب أن أعثر عليها في الحال)

(متى نذهب يا عماه ؟)

(الليلة يا هام ، سنغادر على متن عربة ستريفورث الليلة)

[٤] الإسم الأول من السيد بيجوتي (المترجم) .

(مهـــلا يـــا دانيـــال ، لا ينبغـــي عليـــك أن تـــذهب الآن و أنـــت بتلـــك الحالـــة ، أعلـــم أنـــك مـــاتزال مـــتجهم و غاضـــب و حـــزين للغايـــة ممـــا عرفتـــه عـــن إيميلـــي للتـــو ، و لكـــن أنصـــت إلـــي هـــذه المـــرة و أبقـــى هـــذه الليلـــة حتـــى تهـــدأ أعصـــابك الثـــائرة ، أقبـــل تلـــك النصـــيحة مـــن إمـــراة لـــم تكـــن قـــط متعاونـــة معـــك مـــن قبـــل و قـــررت الآن أن تســـاعدك فـــي محنتـــك بمنتهـــى الإخـــلاص لأول مـــرة فـــي حياتها)

ربتـــت الســـيدة جيميـــدج علـــى ذراع الســـيد بيجـــوتي و هـــدأت مـــن روعـــه فجلـــس بهـــدوء علـــى كرســـيه مجـــددا قبـــل أن يغطـــي رأســـه بيديـــه الضـــخمتين و يجهـــش بالبكـــاء الحـــاد ، لـــم أتمكـــن مـــن مســـاعدتهم فـــي هـــذه المحنـــة ، فعـــدت إلـــى الفنـــدق و إســـم ستريفورث مازال يطن في أذني دون توقف .

بعـــد تلـــك الليلـــة تغيـــرت الســـيدة جميـــدج تمامـــا و بـــات هـــدؤها مختلفـــا للغايـــة هـــذه المـــرة ، فـــأرادت مســـاعدة الســـيد بيجـــوتي و هـــو بتلـــك الحالـــة التـــي يرثـــى لهـــا حيـــث إنشـــغلت طـــوال اليـــوم بتنظيـــف منزلـــه و غســـل ملابســـه و كويهـــا و تجهيزهـــا لرحلتـــه القادمـــة التـــي ســـتبدأ مـــن يـــوم الغـــد (ســـأذهب أولا إلـــى لنـــدن ، و من هناك سأعثر على إيميلي مجددا)

في صباح اليوم التالي ، عندما صعدت مع بيجوتي و شقيقها السيد بيجوتي على متن الحافلة المتجهة صوب لندن إذا بنا نفاجأ بقدوم هام و السيدة جيميدج إلينا ، و قبيل صعودنا إلى الحافلة أوقفني هام للحظة هامسا لي (سيد دافيد ، إذا طلب السيد بيجوتي بعض المال فعليه أن يطلبه مني ، أخبره بذلك)

(سأفعل و إن كنت أعلم بأنه ليس فقيرا الآن بعدما ورث مالا كثيرا من باركس)

ودعناهم جميعا ، و ما إن بدأت الحافلة بالتحرك من المحطة حتى ركضت السيدة جيميدج بجانبه صارخة بأعلى صوتها (وداعا دانيال وداعا ، و لا تحزن و لا تقلق أبدا ، ستجد إيميلي عما قريب ، و سأعتني بالمنزل في غيابك و سأظل فيه إلى أن تعود من رحلتك الطويلة يا عزيزي ، وداعا)

أثار هدوء السيدة جيميدج إستغرابي تماما و بات مختلفا للغاية هذه المرة حيث لم تشتك كعادتها من أي شئ كما عهدناها سابقا ، ما إن وصلنا لندن حتى عثرنا على غرفة للسيد بيجوتي و شقيقته ، ثم ذهبت إلى هايفات لرؤية السيدة ستريفورث دون علمهما ، و عندما وصلت إلى هناك أخبرتها بشأن ولدها ستريفورث و إيميلي و السيد بيجوتي و ما حدث بينهم ، و مع ذلك بدت متكبرة و غاضبة للغاية في ردة فعلها

العنيفة حيال كلامي قبل أن تعود لوضعها السابق (ماذا يريد ؟ أنا لا أريد رؤيته ..... كلا إنتظر ، سأراه ، أحضره إلى هنا غدا صباحا)

في صباح اليوم التالي زرناها معا حيث جلست أمامنا في وضع مستقيم ملؤه الزهو بنفسها و بجانبها روزا دارتيل (أنت خال الفتاة إيميلي ، أليس كذلك ؟)

تحدث السيد بيجوتي معها بهدوء و لطف تام متحكما بأعصابه الثائرة دون أن يشعر بالخوف منها و من كبريائها المزعوم (بلى يا سيدتي)

(ولدي لن يتزوج إيميلي ، إنها ليست سيدة محترمة)

(يمكنها أن تكون سيدة محترمة لأنها ذكية للغاية ، و عندئذ سيتزوجها)

(لن يتزوجها ، أنا أعرف ولدي جيدا)

(عندما جاء إلى منزلنا عاملناه بمنتهى اللطف و الإحترام و ظننا أنه صديقنا الوفي قبل أن يرتكب فعلته الشنعاء التي لا تليق به كسيد محترم)

(ويحك ، إبني لا يخدع الناس ، إنه سيد محترم و أفضل منك أيها التعس العديم الفهم ، و مع ذلك فأنا أعذر تصرفك الفظ هذا ، لذا سأعطيك بعض النقود ..... روزا ، إحضري لي بعض النقود لهم)

(كلا يا سيدتي لا أريد نقودك أبدا ، يا الأسف ، يبدو أننا الوحيدين الذين خدعنا في ولدك هذا بل أنت خدعت فيه أيضا ، أستأذنك بالذهاب الآن ، فأنا لا أريد المساعدة أبدا من أم لا تعرف شيئا عن ولدها)

ما إن خرجت وراء السيد بيجوتي حتى أوقفتني روزا على السلالم صارخة (مكانك ! لقد أخذته إلى ذلك البيت المشئوم ؟ أخذته إلى بيت خشن يسكنه أناس وقحين و رعاع ؟ .....)

(إيميلي ليست وقحة و خشنة ، و السيد بيجوتي رجل رائع و لطيف للغاية ، ستريفورث هو من قابل كرمهم بالجحود و النكران و تسبب لهم بالكثير من الأذى و خدعهم)

(أنا أكره إيميلي أكرهها ، أكرهها ، لقد خدعتنا جميعا ، أكرهها!!!!!)

غـادرت المنـزل موليـا ظهـري نحـو روزا الواقفـة عنـد البـاب و التـي أبـيض وجههـا مـن شـدة الغضـب دون أن يمنعنـي ذلـك مـن رؤيـة جرحهـا القـديم علـى خـدها الأيمـن بوضـوح حيـث بـدا قبـيح المنظـر للغايـة ، و هكـذا بـدأ السـيد بيجـوتي رحلـة بحثـه عـن إيميلـي ، شـعرت بالأسـى نحـوه دون أن أشـعر بـالحزن الشـديد طـوال الوقـت و لا سـيما عنـدما كنـت أزور السـيد سـبنلو كـل يـوم كـي أتلقـى منـه دروس القـانون و بـدأت بـالتفكير بـدورا مجـددا (هل تتذكر إبنتي دورا ؟)

(أتذكرها ؟ كيف لي أن أنساها ؟)

(عفوا ؟ ماذا قلت سيد دافيد ؟)

(تقصد الآنسة دورا ، بلى يا سيدي أتذكرها ، ماذا بشأنها ؟)

(سـتقيم حفلـة كبيـرة و قـد دعوتـك إليهـا ، هـل تحـب الحفـلات ؟)

هـل بإمكـاني الـذهاب إلـى حفلتهـا ؟ هـل أحـب الحفـلات فعـلا ؟ سـيد سـبنلو لـم يحـتج لهـذا السـؤال أبـدا لأنـه بهـذا الأمـر علـى الإطـلاق لأنـي لـم أخبـره مـن قبـل (نعـم سـيد سـبنلو ، أنـت لطيـف للغاية ، متى موعدها ؟)

(الأسبوع القادم ، لاتنسى ، مفهوم ؟)

(مفهوم سيد سبنلو ، لن أنسى)

دورا أيضا دعتني إلى حفلتها المنتظرة عندما بعثت برسالة لي سرعان ما إحتضنتها في قلبي بحرارة من غرامي العارم بمرسلتها تلح علي إلحاحا شديدا بحضورها ، ما إن مر أسبوع كامل ببطء حتى جاء اليوم المنتظر و إشتريت من أجله ثيابا جديدة و بعض الأزهار الجميلة لدورا ، ثم ذهبت إلى بيتها الكبير حيث كانت تجلس في الحديقة مع صديقتها جوليا ميلز يتبادلان أطراف الحديث و بجوارها كلبها الصغير جيب أيضا ، من حسن حظي أن الآنسة موردستون لم تكن معها ، لقد كانت دورا الأزهار كثيرا ، فعرضت أزهاري على كلبها جيب كي يشمها (شم هذه الأزهار ، أليست جميلة ؟)

و مع ذلك لم تعجبه الأزهار فقام بعضها و بعثرتها دون وجه حق ، ما أثار غضب و صراخ دورا عليه (لا تفعل ذلك يا جيب ، لا تؤلم الأزهار الجميلة بعملك السيئ هذا ، أنها هدية من عزيزي السيد كوبرفيلد)

لقد غمرتني السعادة و أنا أسمع هذا المديح منها حول أزهاري الجميلة التي أحبتها حبا شديدا مما جعلني أفكر ما إذا كانت تحبني مثلها أيضا أم لا ؟ لم نجر الحفلة بالمنزل ، بل ذهبت مع دورا و جوليا ميلز و السيد سبنلو بالحصان و

هم بالعربة إلى الريف ، كان هناك العديد من الناس في الحفلة معظمهم أصدقاء لدورا و جيرانها ، وقفت أنا و هي قرب الأشجار نشاهد من خلالها التلال و الحقول العامرة بالأزهار الجميلة ، كان يوما جميلا للغاية تناولنا الطعام و الشراب فيه دون أن أتمكن من الجلوس بقربها أو محادثتها حيث قضت معظم الوقت بالحديث مع أحد الشباب المدعوين إلى حد الضحك و السرور ، ساعتها شعرت بالتعاسة و الغيرة من ذاك الشاب الغريب ، ما دفعني إلى محادثة إحدى الفتيات المدعوات و كانت جميلة للغاية بغية إثارة غيرة دورا التي ما إن رأتني معها حتى تجاهلت ذلك الشاب تماما فسررت من تصرفها الغيور علي إيما سرور ، بعد وجبة العشاء ، توجهت جوليا و معها دورا نحوي (دورا تعيسة للغاية يا سيد كوبرفيلد)

(لماذا ؟)

(لقد تحدثت مع آ.كيت دون أن تتحدث معي)

(و لكني لم أتمكن من الحديث معك و أنت مع شاب آخر أكثر وسامة مني ، كنت مسرورة من الحديث معه دون أن تكترثي بتعاستي مما يدور بينكما)

(أنا آسفة للغاية سيد كوبرفيلد ، يمكنك الحديث معي ، إبقى بجانبي رجاء)

و هكذا بقيت مع دورا طوال الليل نغني معا و نتحدث معا ، حتى عندما ذهبت إلى المنزل بعربة والدها ركبت على متن حصاني بجوار العربة دون أن يشعر والدها النائم بي حيث تحدثت معها كما يحلو لي ، لقد كنت سعيدا للغاية بتلك الرحلة ، و ما إن وصلنا إلى منزلها حتى غمر الحزن وجهي مجددا (علي الذهاب إلى المنزل ، متى سنتقابل مجددا يا دورا ؟)

(لا أعرف)

كانت حزينة للغاية لفراقي عنها مجددا قبل أن تتدخل جوليا ميلز بيننا (إسمع سيد كوبرفيلد ، ستأتي دورا إلى منزلي الأسبوع القادم ، يمكنك زيارتها هناك و لن تكون الآنسة موردستون معنا على الإطلاق ، تعال إلى منزلي الأسبوع القادم)

(أشكرك آنسة ميلز شكرا جزيلا ، أنت إنسانة رائعة و لطيفة للغاية)

ذهبت إلى منزلي على متن حصاني أضحك و أغني من شدة الفرح و السرور ، و في اليوم التالي ذهبت إلى منزل الآنسة ميلز ، و ما إن وصلت إلى هناك حتى فتحت الخادمة لي الباب (صباح الخير ، هل السيد ميلز بالمنزل ؟)

(كلا سيدي ، و لكن الآنسة ميلز بالمنزل ، تفضل بالدخول)

دخلت إلى المنزل و تبعت الخادمة عبر السلالم و معي خاتم في جيبي لدورا مصنوع من الأحجار الزرقاء دون أن يكونوا أشد زرقة من عينيها الزرقاوين ، و في نهاية المطاف أوصلتني الخادمة إلى غرفة الآنسة ميلز حيث كانت تجلس مع دورا معا ، و بعد قليل خرجت الآنسة ميلز مع الخادمة من غرفتها تاركة دورا و أنا لوحدنا ، ظللت أفكر طوال الوقت بطلبي الزواج منها أم لا دون أن أشعر بالشجاعة الكافية للإقدام على ذلك ، نظرت دورا مبتسمة لي و كلانا يمشي في الغرفة جيئة و ذهابا قبل أن أحتضنها بين ذراعيي (دورا ، أنا أحبك ، هل تقبلين الزواج مني ؟)

(و أنا أيضا أحبك دافيد ، لقد قبلت بالزواج منك)

(لقد أحضرت لك خاتما للزواج ، دعيني أضعه في إصبعك)

وضعت الخاتم على إصبعها و قبلتها (و الآن ترتدين خاتمي ، ومن الآن فصاعدا صرت لي)

(لكننا لن نخبر والدي بأمر زواجنا)

(لماذا ؟)

(سيكون غاضبا للغاية منا)

(حسنا ، لن نخبره)

ثم عادت جوليا و أخبرناها بما جرى ، فشعرت بالسعادة الغامرة ، منذ ذلك الحين لم أر دورا في أحوال عدة دون أن أتوقف عن كتابة الرسائل لها و هي بدورها لم تتوقف عن كتابة الرسائل لي ، لقد كان الوقت الذي قضيته في كتابة الرسائل إليها ممتعا حيث شعرت حينها بأني أسعد رجل في العالم .

الفصل الحادي عشر

و مع ذلك كان هناك ثمة بعض الأشياء المثيرة للقلق لدي هذه الأيام كسماع السيد ميكوبر بعض الأخبار الغريبة حينما زرته ذات ليلة رغم شعوره بالسعادة الغامرة على غير عادته (أوه عزيزي كوبرفيلد ، أدخل لدي بعض الأخبار السعيدة لي ، لقد إنتهت مشاكلي)

(أنا سعيد لسماع ذلك ، هات و أسمعنا)

(نحن ذاهبون إلى كانتربري)

(كانتربري ؟ و ماذا ستفعل هناك سيد ميكوبر ؟)

(السيد هيب وجد لي عملا هناك ، هاهاها)

(تقصد يوري ؟!)

(نعم ، لقد وجد لي عملا رائعا للغاية ، لو أديته على أكمل وجه لصرت على إثره محام أيضا)

عدت إلى المنزل و أنا أفكر بشأن ما قاله السيد ميكوبر لي من أخبار مفاجئة و مقلقة عنه ، فكرت بيوري و بمقدار الأذى الذي سيسببه لهذا الرجل الطيب ، إلا أن إهتمامي إنصب بمفاجأة اليوم التالي عندما عدت إلى منزلي ففوجئت بوجود

إمـــراة كبيـــرة فـــي الســـن تجلـــس فـــي غرفتـــي (يـــا للمفاجـــأة ! عمتـــي بتســـي عنـــدنا ؟! يـــا مرحبـــا يـــا مرحبـــا ، لـــم أكـــن أتوقـــع مجيئـــك إلـــى لندن التي تكرهينها كرها شديدا ؟!!)

بـــدت غريبـــة الأطـــوار و متضـــايقة و هـــي تجلـــس علـــى صـــندوق محاذ لباب الغرفة (و مازلت أكرهها حتى هذه اللحظة)

(ما خطبك يا عمتي ؟)

(دافيد ، أنا عجوز حمقاء)

(لما تقولين هذا ؟!)

(لأنـــي خســـرت جميـــع نقـــودي و أصـــبحت الآن إمـــراة فقيـــرة لا تملك من حطام الدنيا شيئا ، هل بإمكانني البقاء معك هنا ؟)

(على الرحب و السعة)

كنـــت متفاجئـــا ممـــا ســـمعته للتـــو منهـــا ، تناولنـــا العشـــاء معـــا و ذهبـــت إلـــى الســـرير لألحـــق علـــى إثرهـــا و أخلـــد إلـــى النـــوم دون أن أتمكـــن مـــن النـــوم غارقـــا فـــي دوامـــة الأســـئلة الحـــائرة حـــول مصـــيري الـــراهن ، هـــل بإســـتطاعتي الـــزواج مـــن دورا بعـــدما صـــرت رجـــلا فقيـــرا للغايـــة ، لـــو علـــم والـــدها بـــذلك سيرفضـــني رفضـــا قاطعـــا ، هـــل بإمكـــان دورا أن تحبنـــي حتـــى بعـــدما صـــرت فقيـــرا للغايـــة ؟

طبعا ستحبني لأنها رائعة و لطيفة للغاية معي ، لذا سأجتهد في عملي و سأحصل على النقود عما قريب ، و من ثم سأتمكن من الزواج من دورا ، لكنني الآن لا يمكنني أن أصبح محاميا مشهورا بين ليلة و ضحاها .

في صباح اليوم التالي ، ذهبت إلى السيد سبنلو (عمتي خسرت جميع أموالها و أضحيت أنا و هي فقراء لا نملك من حطام الدنيا شيئا ، و بالتالي لم يعد بمقدوري أن أصبح محاميا ، فهل بإمكانك منح عمتي مستحقاتها المالية لديك و البالغ قدرها ألف جنية إسترليني ؟)

(أوه يا عزيزي دافيد ، كان بودي منحها الألف جنية إسترليني و لكن شريكي السيد جوركنز و هو رجل قاس للغاية لن يمنحها هذا المبلغ و لن يسمح بإعطائه لها أيضا)

(أوه أنا آسف)

لم يكن السيد سبنلو صادقا فيما قاله عن السيد جوركنز و قسوته ، فعلى حسب معرفتي السابقة به لم يكن رجلا قاسيا أو طماعا إلى هذا الحد ، و لكن لأن السيد سبنلو لم يرد لأي سبب من الأسباب منح عمتي مستحقاتها المالية إدعى عليه هذا الإدعاء الكاذب ، و مع ذلك غادرت مكتبه دون أن

أتمكن من الحصول على الألف جنية إسترليني منه و صعدت على متن إحدى العربات الواقفة أمام بابه الصغير قبل أن أنزل منها إثر سماعي بفتاة تناديني بإسمي حيث لم تكن سوى أغنيس (لقد سمعت أخبارا سيئة عن إفلاس عمتك ، أنا آسفة جدا دافيد ؟)

(لا عليك أغنيس)

(أبي لم يضيع أموالها ، أليس كذلك ؟)

(لا أعرف ، لنذهب و نراها)

صعدت معي على متن العربة حيث أخبرتني في طريقنا إلى منزلي بأن يوري و والدته السيدة هيب يعيشان معها في منزل والدها (لقد تغير أبي كثيرا إلى الأسوأ بعدما صار خادما مطيعا ليوري مما جعلني أشعر الغضب نحوه دون أن أحدث والدي عنه)

ما إن وصلنا إلى منزلي و صعدنا إليه حتى إستقبلتنا عمتي بوجه بشوش (صباح الخير أغنيس ، لما أنت هنا في لندن ؟)

(إني قلقة بشأن أبي يا عمه ، هل يمكنني أن أسألك سؤالا ؟)

(بالطبع يا عزيزتي ، تفضلي)

(هل كان والدي وراء خسارة جميع نقودك ؟)

(كلا يا عزيزتي ، فبينما والدك حاول إنقاذ نقودي إذ بي أخسرها جميعا جراء تصرفاتي الحمقاء)

(أنا سعيدة لسماعي ذلك ، و آسفة لما ألم بك و يمكنني مساعدتك حيث أعرف شخصا ذو شأن كبير لديه عمل لك يمكنك من خلاله الحصول على بعض النقود)

(هذا جيد ، إني بحاجة ملحة للنقود ، سأعمل بجد)

(أعرف ذلك يا عمه ، يمكنك أن تبدأي العمل غدا)

تركت أغنيس مع عمتي في منزلي و إنصرفت لرؤية دورا في منزل صديقتها الحميمية جوليا ميلز حيث إنتظرت بالخارج ، و ما إن خرج السيد ميلز من المنزل حتى تمكنت من الدخول لرؤيتها (دورا ، تبدين جميلة كالعادة)

(أشكرك دافيد ، جيب ، قبل دافيد)

حملت كلبها الصغير جيب بين ذراعيها فقبلته و قبلتني و جلست بجانبها بمفردنا (دورا ، لدي بعض الأخبار الهامة)

(أهي رائعة ؟)

(كلا ، ليست كذلك)

بـــادرتني بالضـــحك و هـــي تقبـــل كلبهـــا الصـــغير جيـــب(إذن ، لا أريد سماعها ، فأخبرني بعض الأخبار الرائعة)

(دورا ، لابد من أن أخبرك بأني صرت متسولا)

(لا تكـــن ســـخيفا دافيـــد ، أنـــت لســـت متســـول ، فالمتســـولون رجال نحيلو القامة ذو وجوه قذرة للغاية)

(أنـــا لســـت متســـولا بـــالمعنى المفهـــوم ، لكـــن عمتـــي خســـرت أموالها و صرت على إثر ذلك فقيرا للغاية)

صـــرخت دورا فـــي وجهـــي خائفـــة (أوه لا دافيـــد ، لا تقـــل هـــذا ، فقير ؟ إني خائفة .....)

(لن نكون فقراء يا عزيزتي و لكننا لن نصبح أغنياء أيضا ....)

(لا تتحدث عن الفقر رجاء ، إنه يجعلني أشعر بالقلق الشديد)

(لا تقلقي يا عزيزتي و دعيني أكملي حديثي معك ، أرجوك)

(عما ستتحدث ؟)

(لن يكون لدينا خادمات ، هل بإمكانك الطبخ ؟)

(الطبخ ؟ كلا لا يمكنني الطبخ)

(هل بإمكانك تعلم الطبخ ؟)

(كلا)

(لابد من أن ندخر النقود أيضا يا عزيزتي ، أيمكنك أن تتعلمي إدخار النقود ؟)

(إدخار النقود ؟ لا أعرف شيئا عن الطبخ أو إدخار النقود و تريد مني تعلمهما ؟ أوه لا دافيد ، يالك من رجل قاسي القلب)

بدأت دورا بالبكاء و الصراخ (جوليا ، جوليا ، أرجوك تعالي إلى هنا ، دافيد رجل قاسي القلب)

ما إن سمعت جوليا صراخها الباكي حتى دخلت على الفور و إحتضنتها بذراعيها و تحدثت معها بهدوء حتى هدأت مجددا (أنا آسف يا دورا ، لقد تسببت بتعاستك هذه المرة ، لن أفعل ذلك مجددا ، أنا أحبك)

جففت دموعها (و أنا أيضا دافيد)

تركت منزل السيد ميلز و القلق مازال يراودني من كل حدب و صوب جراء ما حدث ، فقرر منذ هذه اللحظة أن أعمل بجد ليل نهار حتى أجني المزيد من النقود دون أن أجعل دورا تشعر بالقلق من مصيرها الغامض ، ما دفعني لمقابلة تريدلز الذي بدأ يشرح لي طريقة الإختزال في الكتابة (الإختزال

طريقة سريعة في الكتابة ، تعلم الإختزال بسرعة حتى تتمكن من جني المال بسرعة)

(سأفعل)

و هكذا تعلمت الإختزال بمساعدة تريدلز لي حيث كنت أذهب من الصباح الباكر إلى مقر عملي الجديد ، ثم أتوجه نحو مكتب السيد سبنلو و أعمل هناك طوال اليوم ، و في المساء أعود إلى تريدلز مجددا لتعلم الإختزال منه و الذي كان تعلمه صعبا للغاية حيث تعلمته ببطء شديد دون أن يثبط من عزيمتي أو سعيي الحثيث لجني النقود في سبيل الزواج من حبيبتي دورا مهما كان الثمن ، و في يوم من الأيام ، أرسل السيد سبنلو في طلبي ، و عندما حضرت كان في مكتبه يعتري وجهه الغضب الشديد و معه الآنسة موردستون أيضا (كوبرفيلد ، لقد خدعتني يا هذا ، أنت لست رجلا محترما)

تفاجأت بكلامه الحاد نحوي دون أن أستوعبه جيدا (خدعتك ؟)

عرضت الآنسة موردستون مجموعة من الأوراق صارخة (أجل خدعته ، أنظر إلى هذه الرسائل ، أنت رجل شرير ، و من قبل كنت ولدا شريرا و الآن صرت رجلا شريرا)

(لو سمحت يا آنسة موردستون لا تقاطعيني ، مفهوم ؟)

(مفهوم سيدي)

(كوبرفيلد ، أهذه رسائلك ؟)

(نعم)

أعطى الرسائل لدافيد (إقرأهم أمامي الآن)

(لست بحاجة لقراءتهم أمامك ، أنا فعلا أحب دورا و لست خجلا من مشاعري نحوها)

(تحب دورا أم نقودها يا دافيد ؟)

(أرجوك آنسة موردستون لا تقاطعيني مجددا ..... كوبرفيلد ، لقد خيبت ظني فيك ، أدخلتك إلى بيتي و ظننت أنك سيد محترم ، كنت لطيفا و ودودا معك و في الأخير تكون خائنا للأمانة و تكتب رسائل حب و غرام لإبنتي من ورائي ؟ لن تراها مجددا)

(لا يمكنني أن أعدك بذلك ، فأنا أحبك إبنتك و هي تحبني ، و إذا أبعدتها عني ستجعلها تعيسة للغاية)

(إسمع أيها الشاب ، دورا سترحل بعيدا و تسافر إلى فرنسا مرة أخرى ، و عندئذ ستنساها إلى الأبد)

(مستحيل أن أنساها سيد سبنلو ، فأنا أحبها حب العبادة)

(لا تكن سخيفا ، عليك أن تنساها إلى الأبد ، أصغ إلي ، عمتك خسرت جميع نقودها و أنت الآن رجل فقير لا حول لك و لا قوة ، عكسي أنا تماما حيث أعد من الأثرياء ، و من أجل ذلك وضعت وصيتي مبكرا حيث أوصيت فيها بأموالي و أملاكي لإبنتي الوحيدة دورا فقط ، و مع هذا بإمكاني تغييرها لاحقا متى شئت ، هل تفهم ذلك ؟)

(إذن فأنا مرغم على الإيفاء بوعدي لك و إلا ستحرم دورا من ثروتك)

(بلى يا كوبرفيلد ، فكر بشأنها و تحدث مع خالتك أيضا و أخبرها بأن إبنتي دورا لا يمكنها الزواج من رجل فقير جدا ، إذا أخبرتها بذلك فإنها ستتفهم الموضوع جيدا)

(سأفكر بكل هذا ، و لكن أرجوك يا سيدي ، لا تغضب من دورا)

(إطمئن يا كوبرفيلد إطمئن ، لن أكون قاسيا معها ، يمكنك الذهاب الآن و لكن لا تنسى وعدك الذي قطعته لي)

كنت في غاية التعاسة و الحزن ، و ما إن عدت إلى المنزل حتى تحدثت مع عمتي في الموضوع دون أن تتمكن من

مساعدتي ، قابلت جوليا ميلز و كانت شديدة الأسف من أجلي دون أن تتمكن هي أيضا من مساعدتي ، لم أتمكن من النوم في تلك الليلة حيث ما لبثت إستيقظت مبكرا في صباح اليوم التالي و توجهت على الفور إلى مكتب السيد سبنلو لأراه يعج بزملائي الكتاب و الموظفين المهتاجين آنذاك (ما الأمر يا جماعة ؟)

(إنه السيد سبنلو)

(أهو مريض ؟)

(كلا ، لقد مات)

(مات ؟! كيف ؟!!)

(أثناء عودته إلى منزله الليلة الماضية ركض الحصان الذي يقود العربة بعيدا عنها بعدما تحرر من لجامه فقلبها رأسا على عقب و تسببت في مقتله)

أثناء ذلك ، فوجئت بقدوم شريك السيد سبنلو السيد جوركنز إلى المكتب الذي وصله نباء مقتل شريكه الأليم كالصاعقة (يا لها من أخبار سيئة للغاية ..... من المفترض أنه لديه وصية بشأن ثروته و لكنه لم يفعل)

(بلى فعل سيد جوركنز ، لقد أخبرني البارحة بخصوص ذلك)

أنكر زملائي الكتاب و الموظفين أجمع وجودها بعدما بحثوا عنها في كل زاوية من زوايا المكتب بحثا دقيقا بلا جدوى ، لقد كانت أخبارا سيئة للغاية شديدة الوطأة على دورا التي كنت شديد الأسف عليها دون أن أتمكن من رؤيتها في فرنسا رغم ذهابي إلى عماتها في باتني حيث لم يكن يشغل تفكيرها سوى أبيها الفقير الذي كان مديونا للآخرين قبل أن يسددها لهم قبيل وفاته بفترة ، أحصى الكتاب و الموظفين ما لديه من أموال فإذا بها غير كافية لدورا و نفقاتها الكثيرة ، لقد كان وقتا صعبا للغاية علي حيث ترددت كثيرا على باتني و تجولت في شوارعها دون أن أتمكن من رؤيتها ما أصابني بالقلق و التعاسة من تجاهلها الدائم لي و عما إذا كانت ماتزال تحبني أم لا .

الفصل الثاني عشر

أتعبني القلق حيالها مما إضطرني لأخذ عطلة طارئة لي ، لذا ذهبت إلى كانتربري و زرت أغنيس لأخبرها عما حدث لدورا بعد وفاة والدها (ماذا عساي أن أفعل لها يا أغنيس ؟)

(أكتب رسالة إلى عمتيها في باتني و أخبرهما بأنك تريد زيارة دورا)

(أشكرك على هذه الفكرة الجيدة يا عزيزتي)

(و الآن خبرني عن دورا)

(إنها جميلة للغاية و أنا أحبها كثيرا ، و مع ذلك فهي لا تجيد إدخار النقود و لا الطبخ)

ضحكت أغنيس من وصفي البريء لها (لا تقلق يا دافيد ، دورا ماتزال شابة عديمة الخبرة و قريبا ستتعلم عن هذه الأشياء لاحقا)

(أشكرك يا أغنيس على هذا التشجيع و مساعداتك الكثيرة لي يا صديقتي المفضلة)

نظرت إلي أغنيس بغرابة قبل أن تبتسم لي (عليك أن تعلم بأني سأظل صديقتك المفضلة و سأساعدك على الدوام)

فـي ذلـك المسـاء ظللـت أتحـدث إلـى أغنـيس فـي غرفتهـا رغـم جلـوس السـيدة هيـب معنـا التـي لـم تتركنـا بمفردنـا قيـد أنملـة ممـا أثـار غضـبي منهـا إلـى حـد مـا دون أن السـبب الحقيقـي وراء هـذا الأمـر الغريـب حيـث كانـت أغنـيس و والـدها السـيد وايكفيلـد مـازالا يخافـان كثيـرا مـن يـوري و والدتـه ، لـذا لـم أجـرؤ علـى الحـديث عـن السـيدة هيـب بسـوء ، و فـي الليلـة التاليـة جلسـت مـع أغنـيس مـرة أخـرى لأفاجـأ بالسـيدة هيـب تجلـس معنـا مجـددا ، مـا جعلنـي أسـتغرب عـن سـبب مراقبتهـا الدائمـة لكلانـا كلمـا جلسـنا مـع بعضـنا الـبعض ؟ فمنـذ ذلـك الحـين لـم أطـق وجـود السـيدة هيـب بيننـا ، و هكـذا قـررت المشـي خـارج المنـزل لأفاجأ بيوري يتعقبني (إلى أين تذهب يا سيد دافيد ؟)

(ذاهـب لأتمشـى و أريـح أعصـابي ، طالمـا والـدتك تجلـس معنـا أنا و أغنيس فلا يمكننا الحديث مع بعضنا البعض)

(أعرف)

(فلماذا تراقبنا إذن ؟)

أغلـق يـوري عينـاه الحمـراوان و تلـوى بجسـده الضـئيل (أوه سـيد دافيـد ، أنـت شـاب وسـيم ، و لابـد لأمـي أن تراقبـك مراقبـة دقيقة)

(لماذا يا يوري لماذا ؟)

(ربما لأن أغنيس تحبك و تسعى للزواج منك)

(أنا أتزوج أغنيس ؟ مستحيل ! أنا أحب دورا و أسعى للزواج منها)

(دورا ؟ من تكون دورا هذه ؟)

أخبرت يوري عن حبيبتي دورا فطار فرحا و طربا (أوه سيد دافيد ، أنا مسرور لسماع هذا منك ، سأخبر أمي بذلك ...)

(و لكن هذا ليس معناه أن أغنيس ستتزوجك يا يوري)

أغلق عيناه الحمراوان مجددا و ضم يداه النحيلتان إلى بطنه الهزيل بهدوء (هي لن تتزوج مني سيد دافيد ؟)

(كلا ، لن تفعل)

في تلك الليلة تركتني السيدة هيب أنا و أغنيس و شأننا ، و أثناء تناولي العشاء مع السيد وايكفيلد و يوري الذي عرض مهتاجا على سيده[٥] شرب المزيد من الخمر ، فما كان منه إلا أن لبى طلبه و ظل يشرب المزيد من الخمر دون أن يعكر صفوه و هدوئه التام ، عكس يوري الذي ظل يتحدث أمامنا

[٥] يقصد السيد وايكفيلد (المترجم) .

بإهتياج رغم شربه القليل من الخمر (أغنيس فتاة جميلة للغاية ، إشرب المزيد من الخمر يا سيد وايكفيلد فإنه يدفئك ..... ألست معي يا سيد وايكفيلد بأن زوجها سيكون رجلا محظوظا للغاية ؟)

توقف السيد وايكفيلد عن الشرب و فتح عيناه الثملتان (زوج ؟ قلت زوج ؟)

(نعم زوج ، هل يمكنني أن أكون زوجها ؟)

نهض السيد وايكفيلد من مكانها و إعترى الغضب الشديد وجهه الأبيض بعدما أوقع كأسه على الأرض صارخا في وجه يوري (أنت ؟ أنت تصبح زوجها أيها الكلب القذر ؟)

أثارت العبارة الأخيرة غضب يوري المهتاج (من فضلك يا وايكفيلد لا تقل مثل هذا الكلام ، لا تنسى بأني أملكك و قادر على الزواج من إبنتي رغما عنها)

أشار السيد وايكفيلد بأصبعه إشارة إزدراء صوب يوري (أنت ؟ أنت ؟)

ما إن سمعت صوت الشجار الدائر بين والدها و يوري حتى أسرعت الخطى نحو غرفة الطعام (لقد سمعت أصواتكم ، أبي تعال معي إلى السرير)

أخـذت أغنـيس والـدها إلـى غرفـة نومـه بعيـدا عـن يـوري السـاخر منـه (لا تشـغل بالـك يـا سـيد دافيـد ، إنـه ثمـل و غـدا سيتأسـف على ما فعله البارحة ، إنسى الموضوع يا عزيزي إنسى)

(سأفعل ، طابت ليلتك)

كنـت غاضـبا للغايـة مـن يـوري إلـى حـد تركـه بمفـرده ، و فـي صـباح اليـوم التـالي غـادرت كـانتربري بعـدما عـادت المـودة بـين يـوري و السـيد وايكفيلـد مجـددا و كـأن شـيئا لـم يكـن ، و قبـل رحيلـي قابلـت أغنـيس و ودعتهـا (وداعـا يـا أغنـيس و عـديني بـأن تتزوجي من رجل طيب دمث الأخلاق)

(لا تقلق يا دافيد ، سأفعل)

لـم تـؤثر كلمـاتي المفعمـة بالأمـل إيجابـا علـى وجههـا الحـزين ، مـا إن وصـلت إلـى لنـدن حتـى أخبـرت عمتـي عمـا بـدر مـن يـوري البارحـة (لا ينبغـي علـى أغنـيس أن تتـزوج مـن هـذا الرجـل الشـرير) ، ذات يـوم ، كنـت فـي إحـدى الشـوارع أتمشـى إلـى منزلـي قادمـا مـن عملـي قبـل أن أقـف فجـأة لحظـة رؤيتـي لرجـل يقـف خـارج الكنيسـة حيـث توجهـت إليـه و أخـذت بيـده بعـدما تعرفـت عليـه مليا (أنا لا أصدق ! سيد بيجوتي ؟! كيف حالك ؟!!)

(بخير و الحمد لله يا دافيد)

(و إيميلي ؟)

هز رأسه خجلا (لا جديد عنها)

(بالمناسبة ، أين كنت طوال هذه الفترة ؟)

(في فرنسا يا بني حيث كان الناس لطفاء للغاية معي رغم عدم تمكني من التحدث بالفرنسية و تجولت في كافة شوارعها و مدنها بحثا عنها دون أن أعثر على أي أثر لها ، و بعدما خاب رجائي هناك عدت إلى إنجلترا و من ثم إلى يرموث ، و ما إن وصلت إلى منزلي حتى وصلتني بعض النقود مقدارها خمسون جنيها إسترلينيا[٦] و رسالة بلا إسم تطلب مني عبر سطورها المجهولة أن أنساها إلى الأبد ، في تلك الأثناء كانت هناك إمراة تنظر إلينا من بعيد دون أن تبتعد عنا ، فما إن دنوت قليلا منها حتى عرفتها جيدا ، لقد كانت صديقة إيميلي مارثا إندلز المخلصة في يرموث (و كيف حال هام يا عماه ؟)

(إنه بخير هو أيضا يا سيد دافيد ، فعلى الرغم من حزنه الدائم مازال يجتهد في عمله بجد و نشاط)

(و ماذا تنوي فعله الآن يا عماه ؟)

[٦] تساوي خمسة عشر ألف ريال يمني هذه الأيام (المترجم) .

(سأبحث عن إيميلي مجددا ، علي الذهاب الآن ، وداعا سيد دافيد)

بعدما صافحت السيد بيجوتي حتى راقبته من بعيد يسير إلى أسفل الشارع حتى إختفى هو و مارثا إندلز من ناظري ، واصلت السير نحو منزلي و قلبي يعتصر من الحزن الشديد قبل أن أستلم رسالة وصلتني للتو من عمتي دورا تطلبان مني المجيء إلى بيتهما بصحبة أحد من أصدقائي ، فلم أجد أمامي سوى تريدلز رفيقا لرحلتي إلى هناك ، و خلال سفرنا كان يخبرني عن حبيبة قلبه صوفي بحماس شديد منقطع النظير (صوفي أعز فتاة بالنسبة لي ، أحبها حب العبادة و قريبا سأتزوجها رغم رفض أخواتها البنات طلبي و يفضلن بقاء شقيقتهن الكبرى صوفي معهن و لا سيما و أنها تصرف عليهن و تساعدهن حتى هذه اللحظة)

(و مع ذلك صوفي تريد الزواج منك ، أليس كذلك ؟)

(بلى ، و لكن في آخر مرة قابلتها كان وجهها حزين للغاية و سألتها متى سنتزوج ؟ إجابتني بالنفي ، ما أشعرني جوابها بعدم الثقة نحوها)

(لا تيأس يا تريدلز ، ستتزوج صوفي عما قريب ، كل ما عليك هو الإنتظار فحسب)

(معك حق ، يمكنني أنا و صوفي الإنتظار حتى يفرجها الله علينا)

عندما وصلت قابلت عمتي دورا الآنسة لافينيا و الآنسة كلاريسا بملابسهما السوداء و حديثهما الهادئ اللطيف معي و تريدلز (يمكنك المجيء إلى هنا مرتين في الأسبوع و لا سيما يومي السبت و الأحد ، أيعجبك هذا ؟)

(بلى آنسة كلاريسا ، شكرا جزيلا على ذلك)

و هكذا ظللت أزور دورا مرتين في الأسبوع ، و في إحدى الزيارات إصطحبت عمتي معي حيث أحبت دورا و عمتيها اللطيفتين معنا و إن كان لم يعجبني دلالهما الزائد لزوجة المستقبل (عزيزتي دورا)

(نعم دافيد)

(لقد إشتريت لك كتابا)

(أوه دافيد ، شكرا جزيلا لك)

(إنه كتاب عن الطبخ)

(أوه لا ،كتاب عن الطبخ ؟)

(إقرايه ، إنه كتاب جيد ، ستتعلمي من خلاله الطبخ)

سرعان ما تحول صوتها البهيج إلى حزين للغاية (سأحاول)

حاولت قراءته و ما لبثت أن توقفت (دافيد ، الطبخ يجعلني حزينة جدا ، لقد حاولت تعلمه و لكن دون جدوى ، إنه صعب للغاية)

عندما زارت أغنيس لندن قابلت دورا التي أحبتها كثيرا ، و بعد زيارتها لها سألتني دورا عنها (إنها جميلة جدا ، أليس كذلك ؟)

(نعم ، هي كذلك)

(و لقد عرفتها منذ زمن طويل ، أليس كذلك ؟)

(أعرفها منذ الطفولة)

(إذن ، لماذا إخترتني أنا بالذات دونها هي ؟)

(لأن أغنيس بالنسبة لي مجرد أخت لا أكثر ، أما أنت فروحي و عمري و حبيبة قلبي إلى أبد الأبدين)

الفصل الثالث عشر

إجتهدت في عملي بالإختزال و جنيت من خلاله المزيد من النقود حيث كتبت قصة ذاع صيتها في الآفاق و جنيت نقودا من أرباح توزيعها مما دفعني إلى كتابة المزيد من القصص على غرارها ، مضت شهور و صرت رجلا بعدما بلغت الحادية و العشرين من عمري و بالتالي يمكنني الزواج من دورا ، و بعد زواجنا أسسنا بيتنا الرائع رغم صغر حجمه (علينا أن نشتريه جاهزا بكافة أثاثه ، نحن بحاجة إلى مائدة طعام و طاولات و كراسي و غيرها من الأشياء الضرورية فيه)

مررنا على الدكاكين دون أن نشتري المزيد من الأثاث (الطاولات و الكراسي غير مفيدة لي تماما)

ذات مرة إشتريت كوخا صغيرا لكلبها جيب عليه أجراس ملونة مما أفرح دورا و أبهج قلبها (ذلك رائع سيحبه جيب كثيرا)

لم يكن في نيتي شراء بيت لكلبها المدلل حيث لم أتمكن بعدها من إقتناء الأشياء الضرورية من أثاث و زينة لمنزلنا الجديد ، و مع ذلك لم أشتك أو أتذمر مما حدث إحتراما لمشاعر زوجتي العزيزة دورا ، في ذلك اليوم[٧] إلتقيت بتريدلز

[٧] يقصد يوم الأحد (المترجم) .

و ذهبنا معا إلى الكنيسة من أجل عرسي المجيد ، و هناك وجدت عروسي دورا المهتاجة فرحا آنذاك محاطة بعمتيها و عمتي و أغنيس اللطيفة معها و صوفي يهنئوننا و يبكون فرحين على زواجنا السعيد ، و مع ذلك لم أتذكر عرسنا جيدا ، حتى طعامه اللذيذ الذي تناولناه جميعا في الصباح الباكر نسيته تماما من فرط سعادتي بهذه المناسبة الجميلة المبهجة لقلبي المرهف حيث إعتبرتها حلما من أحلام اليقظة التي تحققت على أرض الواقع .

أخذتنا عربة العرس المجيد إلى منزلنا الجديد حيث أصبحنا أخيرا بمفردنا فيه نتجول حوله دون أن يراقبنا أحد ، و عندما أغلقنا باب علينا إحطت دورا بذراعيي ناظرا إلى عينيها الزرقاوين الجميلتين (هل أنت سعيد دافيد ؟)

(هل سعيدة يا عزيزتي ؟ إنه أسعد يوم في حياتي)

(لقد صرت الآن زوجتك ، ألا تشعر بالأسف من ذلك ؟)

(كلا يا عزيزتي ، بل أنا أسعد رجل في العالم)

و لقد كان حقا أسعد يوم في حياتي حيث كنت سعيدا و محبا لدورا إيما سعادة على الرغم من أن منزلنا لم يكن مريحا للغاية و لم أتمكن من إدارته بشكل سليم و به هذا الكم الهائل من

الخادمات العديمات النفع و من بينهن خادمتنا الأولى ميري آن حيث كانت حمقاء و ثملة[٨] طوال اليوم و لا تجيد الطبخ بمن فيه طبخ العشاء في متأخر من الليل (دورا ، لما لم يجهز العشاء بعد ؟ أما يكفي أنه تأخر تحضيره الليلة الماضية ؟ إلى متى سيظل تحضير العشاء متأخرا على الدوام ؟ أما يكفي أن ميري آن تطبخه بشكل سيء ، عليك أن توبيخها)

(أوه دافيد ، أنت قاسي القلب ، لا يمكنني إدارة الخادمات لوحدي لأنني أخاف منهن ، اهيء اهيء اهيء)

(لا تبكي يا عزيزتي أرجوك ، أنا آسف ، سأتحدث مع ميري آن بنفسي)

تحدثت مع ميري آن و طردتها من المنزل ، فإستبدلتها بخادمة عجوز للغاية غير قادرة على العمل على الإطلاق فطردتها هي الأخرى من المنزل ، كان لدينا العديد من الخادمات و جلهن سيئات للغاية ، و ما زاد الطين بلة عدم تمكن دورا من إدخار النقود حيث أنفقت المزيد منها على الطعام السيء ، ما دفعني إلى مصارحتها بالأمر و الصراخ عليها ، فشعرت بالتعاسة و الكآبة أكثر من ذي قبل (أوه دافيد ، أنا زوجة سيئة و غبية و غير قادرة على إدارة المنزل و

[٨] سكرانة من كثرة شربها للخمر (المترجم) .

لا خادماتـــه الســـيئات و لا حتـــى إدخـــار النقـــود ، أنـــا أعلـــم بأنـــك تشـــعر بالنـــدم لزواجـــك منـــي ، أنـــا متأســـفة جـــدا لأنـــي خيبـــت أملـــك فيني ، لكني أحبك كثيرا يا دافيد أحبك ، اهيء اهيء اهيء)

نظـــرت إلـــى عينيهـــا الجميلتـــين الزرقـــاوين و مســـحت دموعهـــا الغزيـــرة منهمـــا (لا تأســـفي علـــى أي شـــيء يـــا عزيزتـــي و جففـــي دموعـــك ، أنـــا لســـت نادمـــا علـــى الـــزواج منـــك ، فأنـــت ســـتظلين حبيبة قلبي إلى الأبد)

عندئـــذ عـــادت الفرحـــة إلـــى وجـــه دورا الحـــزين مجـــددا ، و لـــذلك فضـــلت عـــدم محادثتهـــا بشـــأن النقـــود و إدخارهـــا مـــرة أخـــرى دون أن أنســـاه تمامـــا ، مـــا دفعنـــي إلـــى محادثـــة عمتـــي بهـــذا الأمـــر (أيمكنـــك مســـاعدتي يـــا عمتـــي ؟ أريـــدك أن تعلمـــي دورا كيفيـــة إدخار النقود)

(كـــلا ، لـــن أفعـــل ، تـــذكر يـــا دافيـــد كيـــف تحـــدثت مـــع والـــدتك بمنتهـــى القســـوة فصـــارت تخـــاف منـــي كثيـــرا ؟ لا أريـــد إعـــادة الماضـــي مجـــددا ، فلـــو علمـــت دورا بطريقتـــي ســـتفر مـــن أمـــامي و لـــن تكمـــل معـــي الـــدرس ، دورا تحبـــك أنـــت يـــا دافيـــد لا تنســـى ذلـــك ، أي نعـــم هـــي ليســـت ذكيـــة لكنهـــا لطيفـــة و جميلـــة و تحبـــك حبـــا جمـــا ، أليـــس هـــذا كـــاف لـــك ؟ لا تكـــن غاضـــبا عليهـــا

و لا تصر على تعليمها بعض الأشياء التي لا تفقهها و تجعلها بائسة)

(و هو كذلك يا عمتي ، و هو كذلك)

ذات مرة ، زارني تريدلز لأول مرة و كان العشاء في ذلك اليوم سيئا للغاية حيث طبخته الخادمة بشكل سيء و اللحم الذي فيه مازال نيئا لم ينضج بعد ، فضلا عن أنها أوقعت العديد من الأطباق و هي تقدم العشاء لنا إلى جانب سير الكلب جيب فوق مائدة الطعام و العبث بمحتوياتها ..... و غيرها من المهازل و الفضائح التي جعلت الدم يجري في عروقي من شدة الغضب و كدت أن أنفجر به على من حولي قبل أن يخمده تريدلز بإبتساماته العريضة و ضحكاته البريئة حيث أعاد السكينة و الهدوء إلى قلبي المهموم بقصصه الممتعة عنه ، و ما إن رحل من منزلنا حتى إقتربت دورا مني و هي تضع سبابتها اليمنى في فمها خجلا مما جرى الليلة (دافيد ، لقد كان عشاء سيئا لصديقك و خاب رجاؤك فيني ، سامحني أرجوك)

(لا تشغلي بالك بشأنه يا عزيزتي)

(و لكنني قلقة هذه المرة ، أريد أن أكون زوجة صالحة لك دون أن أتمكن من ذلك ، أعلم بأني غبية و مجرد طفلة مدللة رغم محاولتي بجد أن أتغير ، و أعلم أيضا بأن المنزل غير مريح للغاية ، أرجوك لا تغضب ، كلما شعرت بالغضب مني قل عني بأني مازلت طفلة مدللة فقط و ساعتها سيزول غضبك مني)

لم أكن غاضبا منها على الإطلاق لأنني لم أكن قادرا على الغضب منها أصلا ، فجمالها و لطفها الزائدين كانا يمنعانني من ذلك و إن كانت غير قادرة على مساعدتي و لو بالكلمة الطيبة ، حتى عندما كنت أكتب قصصي الشهيرة خلال وقتي المفضل بالليل لم تكن تستوعب عملي جيدا حتى تتمكن من مساعدتي بشكل مفيد ، كل ما كانت تقوم بفعله هو الجلوس بقربي و مراقبتي فحسب !

ذات يوم ، أرسلت روزا دارتيل في طلبي بإلحاح شديد ، فتركت عملي و توجهت إلى منزل ستريفورث حيث أخبرتني بعض الأخبار المفاجئة لي ، ثم توجهت إلى منزل السيد بيجوتي حيث كان يجلس في غرفته كي أخبره بأن إيميلي قد إنفصلت عن ستريفورت ، فما إن سمع بذلك مني حتى وقف

مـــذهولا بســـرعة أمـــامي (أو قـــد فعلـــت ؟ آه يـــا صـــغيرتي الفقيـــرة إيميلي ، أين هي الآن ؟)

(لا أعرف)

نقلـــت لـــه مـــا أخبرتنـــي روزا عـــن إيميلـــي بالتفصـــيل الممـــل (ليســـت ميتـــة إذن ، إيميلـــي مازالـــت علـــى قيـــد الحيـــاة ، لقـــد كنـــت خائفـــا مـــن عـــدم العثـــور عليهـــا أمـــا الآن فلقـــد أصـــبح لـــدي الأمـــل فـــي إيجادها ، و لكن كيف يمكننا أن نجدها ؟)

(هـــي لـــن تعـــود إلـــى يرمـــوث خجـــلا و نـــدما ممـــا فعلتـــه مـــن قبـــل ، و لكـــن ربمـــا ســـتأتي إلـــى لنـــدن بإعتبارهـــا مدينـــة مزدحمـــة بالنـــاس كـــي لا يتمكن أحد من العثور عليها بسهولة)

(أنت محق ، لا يمكننا العثور عليها هناك)

(بلى يمكننا ذلك يا عماه ، أم تراك نسيت مارثا إندلز ؟)

(كلا ، لم أنساها ، لقد ساعدت إيميلي في يوم من الأيام)

(إنها في لندن ، و بإمكانها مساعدتنا في العثور على إيميلي)

تجولنـــا فـــي شـــوارع لنـــدن بحثـــا عـــن مارثـــا إنـــدلز إلـــى أن تمكنـــا مـــن العثـــور عليهـــا و تبينـــا ملامحهـــا جيـــدا رغـــم ملابســـها الفقيـــرة و القـــذرة و وجههـــا الحـــزين حيـــث كانـــت تمشـــي علـــى الرصـــيف

بمحـــاذاة النهـــر[٩] بعـــدما لحقناهـــا داخـــل بعـــض الشـــوارع الفقيـــرة بأرصـــفتها القـــذرة و الضـــيقة هنـــاك دون أن نتحـــادث معهـــا أو نراهـــا فـــي تلـــك الليلـــة البـــاردة و الممطـــرة بغـــزارة قبـــل أن تتوقـــف عـــن الســـير قـــرب إحـــدى الجســـور حيـــث بـــدا مـــا تحتـــه بـــاردا و قـــذرا يعـــج بالمخلفـــات و الفضـــلات دون أن يثنيهـــا عـــن الإنتحـــار ، مـــا إن صـــرخت بإســـمها حتـــى ركضـــت نحوهـــا و أمســـكت بـــذراعها حتـــى أجهشـــت بالبكـــاء الحـــاد (أوه النهـــر ، النهـــر ، دعنـــي أقـــذف بنفســـي إليـــه ، أريـــد أن أمـــوت ، لـــيس لـــدي أيـــة نقـــود ، أنـــا إمـــراة سيئة للغاية ، دعني أموت)

(أمسك بذراعها سيد بيجوتي)

أمســـك الســـيد بيجـــوتي بـــذراعيها و أخـــذناها بعيـــدا عـــن الجســـر ، لـــم تتوقـــف عـــن البكـــاء الصـــاخب دون أن تـــتمكن مـــن الكـــلام (كوني هادئة يا مارثا ، سنساعدك ، لذا عليك بمساعدتنا)

و أخيـــرا هـــدأت مـــن روعهـــا و تحـــدثت معنـــا (مـــن أنتمـــا ؟ و مـــاذا تريدان مني ؟)

أخبرتهـــا عـــن صـــديقتها إيميلـــي فنظـــرت إلـــي بنظـــرة فاحصـــة للغايـــة و جففـــت دموعهـــا (آه ، لقـــد تـــذكرتك الآن ..... إيميلـــي

[٩] يقصد نهر التايمز في لندن (المترجم) .

صـــديقتي ، لقـــد ســـاعدتني ذات مـــرة فـــي يرمـــوث و علـــي رد جميلهـــا و مســـاعدتها الآن ، سأســـال النـــاس هنـــا عنهـــا و أتجـــول فـــي الشـــوارع باحثـــة عنهـــا ، و عنـــدما أجـــدها ســـآخذها إلـــى غرفتـــي حتـــى أخبركمـــا بمكانهـــا ، لقـــد أنقـــذتني فـــي تلـــك الليلـــة و أنـــا مسرورة لصنيعها هذا)

(أشكرك يا مارثا ، و هاك بعض النقود)

(لا يـــا ســـيدي ، إيميلـــي صـــديقتي و علـــي البحـــث عنهـــا دون مقابل ، و لكن ما هو عنوانك ؟)

أعطيتهـــا عنـــواني بالكامـــل ، ثـــم تركـــت الســـيد بيجـــوتي بعـــدما أعدتـــه إلـــى منزلـــه فـــي يرمـــوث و بعـــد ذلـــك عـــدت إلـــى منزلـــي فـــي لنـــدن منتظرا الأخبار المنتظرة منها .

الفصل الرابع عشر

أنهيت كتابي الأول ، لقد كان كتابا رائعا للغاية و جنيت من ورائه المزيد من النقود و صرت على إثره من الأغنياء ، و مع ذلك لم تكن حياتي داخل المنزل مريحة تماما حيث لم أتمكن من إدارته بشكل سليم من كثرة الخادمات الفاشلات لدينا ، و ما زاد الطين بلة أن سرق أحد الأولاد المشردين نقودا منا في إحدى الأيام مما دفعني إلى مصارحة دورا في تلك الليلة و قد بلغت القلوب الحناجر (عزيزتي دورا ، نحن لا ندير منزلنا بشكل سليم)

(ماذا تعني ؟)

(أعني أننا لا بد أن نغير العديد من الأمور العبثية فيه ، فنحن لدينا عدد ضخم من الخادمات و جميعهن سيئات للغاية ، أعلم أنه ذنبي ، لذا علي إدارتهن بشكل سليم)

إنهمرت الدموع من عينيها كالعادة (ليس ذنبك بل ذنبي أنا ، أوه دافيد ، أنا أحاول قدر المستطاع إدارتهن ، لذا أرجوك ، لا تكن قاسيا معي)

(لا تقلقي يا دورا ، سأدير هؤلاء الخادمات بنفسي)

و هكـــذا قمـــت بـــإدارة الخادمـــات بنفســـي دون أن يـــنعم منزلنـــا بالراحـــة التامـــة ، فأنـــا مازلـــت رجـــلا مشـــغولا فـــي عملـــي و زوجتـــي دورا تســـاعدني فـــي عملـــي و فـــي إدارة المنـــزل بصـــعوبة تامـــة (لابـــد لـــدورا أن تتغيـــر ، لـــذا علـــي أن أعلمهـــا كـــل شـــيء أرادت ذلـــك أم لـــم تـــرد ، و عندئـــذ ستصـــبح ذكيـــة ، فهـــي مازالـــت تتصـــرف تصـــرفات الأطفـــال و لـــيس كزوجـــة مســـئولة مـــن زوجهـــا و بيتهـــا ، سأتحدث معها و سأقرأ لها الكتب ثم ستتعلم كل شيء)

و هكـــذا لقنـــت دورا الـــدروس العســـيرة الفهـــم و قـــرأت لهـــا الكتـــب الصـــعبة دون أن تـــتمكن مـــن الـــتعلم بســـهولة حيـــث مازالـــت تتصـــرف تصـــرفات الأطفـــال (ســـيكون لـــدينا طفـــل فـــي يـــوم مـــن الأيـــام و بالتـــالي دورا ســـتهتم بـــه أيمـــا إهتمـــام و تتحـــول علـــى إثـــر رعايتها له إلى زوجة حقيقية)

و فعـــلا صـــار لـــدينا طفـــل مـــا لبـــث أن مـــات بعـــد شـــهر مـــن ولادتـــه ، فصـــرت حزينـــا للغايـــة علـــى وفاتـــه و علـــى إصـــابة والدتـــه دورا بـــالمرض حيـــث ظلـــت ممـــددة علـــى الســـرير طـــوال النهـــار دون أن يمنعهـــا مرضـــها العضـــال مـــن الســـعادة و الضـــحك و الإبتســـامة معـــي و مـــع عمتـــي عنـــدما زارتنـــا فـــي يـــوم مـــن الأيـــام (دافيـــد ، لســـت تعيسا معي ، أليس كذلك ؟)

(تعيس ، كلا يا عزيزتي)

(أعلم جيدا أني لست زوجة صالحة ، فلم أتمكن من إدارة المنزل و لم أستوعب كتبك الصعبة تماما التي ألفها مؤلفون أذكياء للغاية مثلك ، عكسك تماما ، فأنا مجرد إمراة غبية حمقاء إلى حد ما ، و مع ذلك مازلت أحبك كثيرا ، فهل مازلت تحبني ؟)

(طبعا يا عزيزتي دورا ، فأنا مازلت أحبك و سأظل أحبك إلى الأبد)

لقد كنت صادقا في حبي الشديد لها حتى هذه اللحظة رغم أن حياتي ظلت سيئة و فارغة من الراحة إلى حد ما بسببها حيث لم تتمكن حقا من مشاركتي في أمور حياتي مشاركة فعلية كزوجة حقيقية مسئولة من زوجها و بيتها سوى بالكلام الجميل و العبارات الرنانة و تعاملي معها معاملة الأب لإبنته الصغيرة ، ذات يوم ، بعث السيد ميكوبر لي برسالة غريبة أثارت قلقي عليه (كوبرفيلد ، إني بحاجة لمساعدتك ، لدي سر هام يجعل حياتي بائسة للغاية حيث لم أشرك زوجتي به ، هل ستساعدني ؟)

و على وجه السرعة أخبرت تريدلز بشأن الرسالة ، فدعوت السيد ميكوبر إلى منزلي و تريدلز معي ، و عندما وصل بدا

وجهه أبيض اللون من فرط حزنه الشديد على حاله البائس (كيف حالك سيد ميكوبر ؟ و كيف حال السيد وايكفيلد ؟)

(إنه بخير على الرغم من أنه بلغ من الكبر عتيا)

(و يوري هيب ، كيف حاله ؟)

ما إن ذكر تريدلز إسم يوري هيب أمامه حتى أمتقع لون وجه السيد ميكوبر و فغر فاه صارخا من شدة الغضب في نهاية المطاف (يوري ؟ يوري ؟ إنه كلب حقير ، حيوان قذر)

(إهدأ أرجوك سيد ميكوبر ، لن نتحدث عنه ، كيف حال الآنسة وايكفيلد ؟)

عاد السيد ميكوبر إلى هدوئه السابق (تقصد أغنيس ؟ إنها بخير و الحمد لله ، يا لها من حلوة و لطيفة للغاية ، و مع ذلك لا يمكنني نسيان ما فعلته بوالدها السيد وايكفيلد)

أجهش السيد ميكوبر بالبكاء مما أثار دهشتي أنا و تريدلز ينظر بعضنا للآخر متفاجئين من تصرفاته الغريبة قبل أن يعود إلى حديثه معنا مجددا صارخا في وجهينا المذهولين (لا يمكنني فعلها ، كلاهما لطيف و ودود معي و أنا لا أستحق محبتهما و صداقتهما لي ، أنا رجل شرير مثل هيب تماما ، و لكني سأتغير ، سأخبرك يا كوبرفيلد عن هيب و جميعه أسراره

القــذرة حتــى و لــو كــان الــثمن ذهــابي إلــى الســجن و حرمــان عائلتي من النقود)

ظــل الســيد ميكــوبر يبكــي و يصــرخ مــن شــدة الغضــب دون أن أســتوعب كلامــه بســهولة (هــدئ مــن روعــك ســيد ميكــوبر ، أجلس أرجوك و هدئ من روعك)

(لا ، لا يــا كوبرفيلــد ، لا يمكننــي أن أهــدأ ، إنــي أكــره هــذا الرجــل ، أكرهــه ، تعــال إلــى كــانتربري الأســبوع القــادم و قــابلني في الفندق و سأخبرك بكافة أسراره القذرة)

ظــل الســيد ميكــوبر مهتاجــا للغايــة دون أن يــتمكن مــن الكــلام ، نظــر إلينــا قبــل أن يــركض خــارج المنــزل (أوه يــا عزيــزي ، هــذا سيء ! هل السيد ميكوبر مجنون ؟)

(كلا يا تريدلز ، لم يكن مجنونا ، بل غاضبا فحسب)

و لقــد كنــت صــادقا فيمــا قلتــه ، فبعــد لقائنــا الســاخن فــي منزلــي بأيــام بعــث الســيد ميكــوبر لــي برســالة يعتــذر مــن خلالهــا لــي عمــا بــدر منــه نحــوي (كوبرفيلــد ، لقــد كنــت مهتاجــا و غاضــبا كثيــرا فــي منزلــك و تكلمــت معــك بحماقــة ، فــأرجوك ســامحني ، لكــن مــن فضــلك تعــال إلــى كــانتربري الأســبوع القــادم ، و عندئــذ سأخبرك بشأن هيب)

في الليلة التالية ، كنت أفكر بشأن السيد ميكوبر و ما قاله عن يوري هيب و أنا أتمشى في حديقة منزلي قبل أن أفأجأ بقدوم إمراة إلي (سيد كوبرفيلد)

تعرفت عليها من خلال صوتها و ملابسها البائسة (مارثا ! هل لديك بعض الأخبار عن إيميلي ؟)

(نعم ، و لكني لم أجد السيد بيجوتي في غرفته فتركت له رسالة هناك ، أين هو ؟)

(غالبا ما يزورني هنا)

(إذن ، تعال معي)

أخذتني مارثا إلى منزل فقير في الأعلى ، و أثناء عبورنا للسلالم صادفتنا إمراة أمامنا أعرفها من قبل ، لقد كانت روزا ! (إنني أعرف تلك المرأة ، إنها ....)

(شش ، لا تتكلم)

تبعنا المرأة السالفة الذكر حتى وقفت خارج الباب و نظرت إلى الإسم المعلق فوقه ، و ما إن دخلنا حتى سمعنا صوت شجار في الداخل (لندخل يا مارثا ، علينا مساعدة إيميلي من تلك المرأة ، إنها روزا دارتيل)

(رويدك رويدك يا دافيد)

ظللت مع مارثا خارج الباب نسمع الشجار الدائر بين روزا و إيميلي (إسمك إيميلي ، أليس كذلك ؟)

(بلى ، و من تكونين أنت ؟)

(أنا أدعى روزا دارتيل و أعيش مع السيدة ستريفورث)

همست إيميلي لنفسها بدهشة (ستريفورث ؟)

كان صوت روزا باردا و قاسي القلب كفحيح الأفاعي (نعم ، ستريفورث ..... دعيني أتأمل إليك ، نعم أنت جميلة حقا و لكن بوجه أحمق و قلب شرير)

أجهشت إيميلي بالبكاء مما سمعته للتو (كلا ، لما جئت إلى هنا ؟ لماذا تقولين هذه الأشياء القاسية عني ؟)

(أكرهك ، أكرهك ، أبعدت ستريفورث عني و عن والدته و خدعته بوجهك الجميل الكاذب و أردت الزواج منه سعيا وراء نقوده فحسب)

(هذا غير صحيح ، أنا أحبه و هو يحبني ، كلانا نحب بعضنا البعض)

(حب ؟ هه ، أنت و أمثالك لا يعرفون شيئا عن الحب لأنك لست سيدة محترمة بل إبنة صياد سمك فقير ، لقد إشتراك ستريفورث بأمواله فحسب بإسم الحب)

(كلا ، هذا غير صحيح ، لماذا أتيت إلى هنا ؟)

(أردت أن أجرحك ، إنه خطاؤك ، عليك مغادرة هذا المنزل و العودة إلى أسرتك في الحال)

(كلا لا أستطيع ، لا أريد رؤية عائلتي و خالي بيجوتي مجددا خجلا و ندما على ما فعلته بحقهم)

(عليك أن تغادري هذا المنزل و تغادري إنجلترا أيضا ، سأعمل ما بوسعي لطردك من هنا إلى غير رجعة و أشوه صورتك أمام الناس لأنك إمراة شريرة و حمقاء ، إرحلي ، إرحلي من إنجلترا إلى غير رجعة)

(لا تكوني قاسية معي هكذا ، دعيني أبقى ، أنا لست إمراة شريرة ، أرجوك دعيني)

(إغربي عن وجهي ، إني أكرهك)

خرجت روزا من المنزل غاضبة بسرعة تاركة إيميلي تبكي بحرقة دون أن تلاحظ وجودي أنا و مارثا ، و أثناء نزولها من

السلالم إلتقت مصادفة رجلا كبيرا في السن ألا و هو السيد بيجوتي الذي صعد إلى منزل إيميلي دون أن يرانا ، و ما إن دخل حتى رأته إيميلي و توقفت عن البكاء و إحتضنته بحرارة بالغة فرحة بوجوده (و أخيرا وجدتك يا عزيزتي إيميلي ، حمدا لله على سلامتك ، لا تبكي يا عزيزتي لا تبكي)

(لن أبقى هنا ، إن رأتني إيميلي فستشعر بالخجل مني ، سيأتي السيد بيجوتي إلى منزلي و سيخبرني بما دار بينهما ، شكرا يا مارثا على مساعدتك)

غادرت المكان تاركا مارثا بمفردها عائدا إلى منزلي على وجه السرعة ، و في المساء زارني السيد بيجوتي و كانت زوجتي دورا في شرف إستقباله رغم مرضها العضال (أنا سعيد جدا يا دافيد ، لقد وجدت إيميلي أخيرا ، كانت تشعر بالتعاسة من قبل قبل أن تشعر بالسعادة عند إلتقائنا بها حيث أخبرتني في الليلة الماضية عن رحلتها إلى فرنسا قبل أن تعود إلى إنجلترا بأيام ، و هناك قابلت مارثا التي أنقذتها من الفقر و الموت و أخذتها إلى غرفتها و إعتنت بها ، لقد ساعدتنا مارثا كثيرا في العثور على إيميلي إنها لطيفة للغاية)

(و ماذا تنوي فعله الآن يا عماه ؟)

(إيميلي لا يمكنها العيش في يرموث بعد الآن ، فالناس هناك يعرفون قصتها المخجلة و لطخت شرفهم بالعار حيث لا تجرؤ بالظهور أمامهم و العيش معهم مجددا ، لذا قررنا مغادرة إنجلترا إلى أستراليا ، و لكن قبل موعد السفر إلى هناك بأسابيع قليلة علينا الإنتظار حتى نعثر للسيدة جيميدج على منزل آخر و نعطها بعض النقود كي تعتاش منهم)

سألته عن شقيقته و خادمتنا العجوز بيجوتي التي كانت حينذاك تعيش في منزل هام و تعتني به ما إذا كانت ستسافر معه إلى أستراليا أم لا ؟ فأجاب بأنها لن تأتي معه و ستظل في يرموث مع هام و معي ، و في تلك الأثناء أخرج رسالة من جيبه (بالمناسبة سيد دافيد ، لدي رسالة موجزة للسيدة ستريفورث أرسلت من خلالها بعض النقود لها و هي من نقود ستريفورث التي أعطاها لإيميلي بعد إنفصالهما حيث قررت إيميلي منحها للسيدة ستريفورث ، فهل سترسلها لها ؟)

(بالتأكيد يا عماه ، سأفعل)

(هل ستأتي إلى يرموث معي لزيارة أختي ؟ ستكون سعيدة للغاية بقدومك)

(نعم ، سأفعل)

و هكـذا ذهبـت إلـى يرمـوث بصـحبة السـيد بيجـوتي حيـث رأيـت شـقيقته و خادمتنـا العجـوز بيجـوتي مقيمـة هنـاك مـع هـام الـذي إلتقيـت بـه فيمـا بعـد و تمشـينا معـا علـى شـاطئ البحـر ، و فـي تلـك الأثنـاء ضـغط علـى ذراعيـي الطـريتين بيديـه القـويتين (سـيد كوبرفيلـد ، أنـت تعلـم جيـدا بـأني سـامحتها علـى مـا فعلتـه و إن كانـت سـتختبئ نـدما و خجـلا منـي ظنـا منهـا أنـي مازلـت غاضـبا منهـا ، و سـاعتها لـن أتمكـن مـن رؤيتهـا بتاتـا ، كمـا أنـا بـائس للغايـة يـا سـيد كوبرفيلـد ، فأنـا مازلـت أحبهـا حتـى هـذه اللحظـة دون أن تعلـم إيميلـي بـذلك ، كـم هـي بائسـة و حزينـة الآن و سـيزداد حزنهـا أكثـر مـن ذي قبـل إن هـي فكـرت بـي مجـددا ، عنـدما تراهـا لا تخبرهـا بـأني مازلـت غاضـب منهـا جـراء فعلتهـا المشـينة تلـك بـل سـامحتها علـى مـا فـات ، و لا تخبرهـا أيضـا بـأني مازلـت أحبهـا حتـى هـذه اللحظـة حتـى لا تتعلـق بـي مجـددا ، يجـب عليهـا أن تبـدأ حيـاة جديـدة و سـعيدة مـن دونـي ، عندئـذ سيكون كلانا مسرور بحياته الخاصة بعيدا عن بعضنا البعض)

لقـد كـان هـام رجـلا رائعـا للغايـة بمعنـى الكلمـة ، مـا إن تصـافحنا بحـرارة حـت تركتـه عنـد الشـاطئ و توجهـت بـدوري إلـى منـزل السـيد بيجـوتي ثـم رأيـت إيميلـي ممـددة علـى السـرير و غارقـة فـي النـوم مـن شـدة التعـب و مـا لاقتـه مـن نكبـات جمـة ، بعـد ذلـك

جلست مع السيد بيجوتي و السيدة جيميدج التي إشتكت لي كعادتها من صاحب البيت الذي نحن فيه (أوه سيد كوبرفيلد ، أخبر السيد بيجوتي بألا يدعني وحدي هنا و يأخذني معه إلى أستراليا)

أمسكت بذراع السيد بيجوتي متوسلة إليه (أرجوك يا دانييل ، دعني أذهب معك إلى أستراليا و أشاركك حياتك القادمة هناك ، و لا تتركني وحيدة هنا ، أرجوك)

(و هو كذلك يا سيدة جيميدج ، يمكنك المجيء معي إلى أستراليا)

(هيييه ، أشكرك يا دانييل ، أشكرك جزيلا على ذلك ، من الآن فصاعدا لن أشتكي و لن أشعر بالحزن مجددا و سأعمل بجد من أجلك و من أجل إيميلي أيضا)

و في اليوم التالي غادرت يرموث متجها نحو لندن ، و هناك قابلت تريدلز ، لقد حان الوقت لرؤية السيد بيجوتي قبل سفره إلى أستراليا ، فذهبنا و معنا عمتي إلى كانتربري حيث زرنا مكتب السيد وايكفيلد لنفاجأ برقوده على السرير من شدة المرض ، فأخذنا السيد ميكوبر إلى يوري هيب الذي رحب بنا أيما ترحيب مطط يداه مبتسما أمامنا إبتسامة باردة كعادته

(هـذا يسـعدني كثيـرا ، سـيد كوبرفيلـد و الآنسـة تروتـوود و السـيد تريدلز هنا ؟ يا مرحبا يا مرحبا)

مـا إن رأى يـوري السـيد ميكـوبر حتـى بـدل إبتسـامته بوجـه غاضب للغاية (سيد ميكوبر ، يمكنك الذهاب)

كـان السـيد ميكـوبر لديـه عصـا كبيـرة و رسـالة فـي اليـد الأخـرى (كلا لن أذهب)

إزداد يـوري غضـبا أكثـر مـن ذي قبـل و تحـدث إلينـا بسـرعة خاطفـة (الآن فهمـت ، هـذه مكيـدة مـدبرة منـك يـا سـيد كوبرفيلـد ، ألـيس كـذلك ؟ مازلـت تكرهنـي كالعـادة ، فـدبرت لـي هـذه المكيدة مع خادمي ميكوبر)

(أنـت الـذي دبـرت هـذه المكيـدة يـا يـوري ، دبرتهـا ضـد السـيد كوبرفيلـد و السـيد وايكفيلـد ، لقـد كتبـت كـل مـا فعلتـه بهمـا أسفل هذه الرسالة)

(أعطني إياها)

مـا إن حـاول يـوري أخـذ الرسـالة مـن السـيد ميكـوبر حتـى ضـربه الأخيـر علـى يـده ضـربا مبرحـا ، فصـرخ يـوري علـى إثرهـا مـن شـدة الألـم و هـول المفاجـأة و تراجـع قـافزا إلـى الخلـف ، فركضـت والدتـه السـيدة هيـب مسـرعة نحـوه بغيـة حمايتـه قبـل أن يرفـع

السيد ميكوبر عقيرته بالصوت عليها و عليه (هدئ من روعك يا هيب و دعني أقرأ رسالتي الآن)

(أوه يا عزيزي يوري ، كن متواضعا لهؤلاء الناس)

(كلا يا أمي ، دعيه يقرأ رسالته أمامي ، أنا لست خائفا منه)

بدأ السيد ميكوبر يقرأ رسالته المثيرة للجدل (لقد أتيت للعمل من أجل هيب ، و ستعرف أيضا بأني إستعرت نقودا كثيرة منه ، و هددني بإرسالي إلى السجن إن لم أسدد ما علي من ديون له ، و لأنه يعلم جيدا بأني غير قادر على سدادها كاملة إستغلني و إستعبدني و جعلني خادما مطيعا رغما عني في تنفيذ أعماله القذرة ، هيب رجل شرير للغاية ، سرق ١٢ ألف جنية إسترليني من الأموال المودعة لدى السيد وايكفيلد من قبل المودعين و التي ألصقها بالسيد وايكفيلد أيضا و إتهمه بسرقتها بعدما وقع وثيقة عن طريقي مستغلا شهوتي لشرب الخمر تدين صاحب المكتب و تؤكد أخذها من الناس الذين إستأمنوه عليها ، و ما إن رأى السيد وايكفيلد الوثيقة المزورة حتى صدق كلام هيب المزيف و حمل نفسه مسئولية ما حدث)

(هاه ، ما هو برهانك على هذا الهراء الذي تتفوه به يا سيد ميكوبر ؟ أنت لست قادر على إثبات صحة ما تزعم به)

(بل قادر على ذلك يا هيب ، و لدي الوثيقة الأصلية التي تدينك بسرقة ١٢ ألف جنية إسترليني من أموال المودعين لدى مكتب السيد وايكفيلد التي أخذتها من درج مكتبك ، لقد كتبت مكيدتك في كتاب صغير ، و هذا الكتاب بحوزتي الآن)

(يا اللهول ! أرجوك إهدأ يا يوري)

(أرجوك يا أماه ، دعيه يكمل)

إستئانف السيد ميكوبر قراءته للرسالة (حتى ما تبقى من النقود التي ظلت بحوزة السيد وايكفيلد سرقها هيب منه أيضا دون أن يجرؤ الأول على الوقوف للأخير بالمرصاد خوفا منه و فضحه أمام المودعين بتهمة سرقتها من ورائهم بموجب الأدلة و البراهين التي بحوزته ، لقد سرق هيب المزيد من نقود المودعين لدى مكتب السيد وايكفيلد و لدي الأدلة و البراهين التي تؤكد صحة ذلك)

ما إن سمعت عمتي بذلك حتى إندفعت نحو يوري و أمسكت بقميصه بعنف شديد (نقودي ! أيها اللص ، أنت

الـذي سـرقت نقـودي ، كنـت أظـن أن السـيد وايكفيلـد قـد أضـاع نقـودي فـي أحـدى المشـاريع الفاشـلة ، لـذلك لـم أخبـر أغنـيس بـذلك ، و الآن عرفـت مـن هـو الـذي سـرق نقـودي ، أنـه أنـت أيها الوضيع ، أعد إلي نقودي)

أبعـدت قبضـتها عنـه بصـعوبة بعـدما كـادت أن تقتلـه خنقـا و أبعدتها عنه (لا تؤلميه يا عمتي رجاء)

نظـر تريـدلز إلـى يـوري بغضـب (و الآن يـا يـوري ؟ مـاذا سـنفعل بك ؟ هل تعيد ما سرقته إلينا أم نرسلك إلى السجن ؟)

(السجن ؟ أوه لا ! ولدي المسكين سترسلونه إلى السجن ؟)

نظـر إلينـا بعينيـه الحمـراوين الصـغيرتين (هـدئ مـن روعـك يـا أمـاه ، لـن يحـدث شـيء مـن هـذا و لـن أذهـب إلـى السـجن ، لأنـي سأدفع نقودكم في الحال)

غـادر يـوري هيـب الغرفـة غاضـبا مـن الجميـع و علـى رأسـهم السـيد ميكـوبر الـذي شـعر بالراحـة مـن هـم ظـل يؤرقـه و إنـزاح مـن صـدره إلـى غيـر رجعـة (لـم أكـن صـادقا و أمينـا معكـم ، لقـد كنـت شـريرا مثـل هيـب ، لكـن الآن أخبرتـك يـا كوبرفيلـد بسـري الـدفين و عـن مـؤامرة هيـب ضـد السـيد وايكفيلـد ، أي نعـم أنـا مـدين لـه بـالنقود و بسـببها سيرسـلني إلـى السـجن لأنـي خدعتـه ، و مـع

ذلك أشعر بالراحة أكثر من ذي قبل و يمكنني الكلام مع أسرتي مجددا دون أن أخفي أية أسرار عنهم ، أنا سعيد للغاية)

(لم يعد لديك أي عمل الآن يا سيد ميكوبر ، أليس كذلك ؟)

(عمل ؟ لا يمكنني التفكير بأي عمل الآن ، ربما سنسافر جميعا إلى أستراليا ، أنا سعيد للغاية و علي أن أرى أسرتي مجددا)

ركض خارج السيد ميكوبر المكتب يغني فرحا و طربا و أنا و عمتي نتبادل النظرات و الإبتسامات و الضحكات لبعضنا البعض .

الفصل الخامس عشر

ما زال الحزن و الكآبة حياتنا الزوجية جراء مرض دورا العضال التي لم تشف منه بعد و لم تتمكن بسببه من مغادرة السرير على الإطلاق ، إلا أن تدهور صحتها لم يمنعها من مداعبة كلبها المدلل و اللعب معه رغم كبره في السن حيث لم يعد قادرا على الركض و القفز كما في السابق ، و هذا ما دفع عمتي أثناء زيارتها لدورا في إحدى الأيام إلى نصحها بإستبدال جيب بكلب جديد غيره (لقد بلغ جيب من الكبر عتيا ، فما رأيك لو إقتنيت لك كلبا جديدا في ريعان شبابه قادر على الركض و اللهو معك ؟)

(أوه كلا يا عمتي ، أشكرك على عرضك الكريم هذا ، و لكني أفضل الإحتفاظ بجيب مهما كانت الأسباب و حتى بعدما أتلف الأزهار التي إشتراها دافيد لي)

كان جيب في حالة لا يرثى لها كلبا عجوز مسكين بطئ الحركة عكس صاحبته دورا المريضة بوجهها الأبيض الجميل المبتسمة على الدوام و حديثها اليومي السعيد معها ، ذات يوم لم تبتسم دورا لي كالعادة و إكتفيت بالنظر إلى هزالها جراء المرض ، فشعرت بالحزن الشديد عليها (دافيد ، أريد

مقابلة أغنيس ، إبعث لها برسالة تخبرها من خلالها بأني أريد رؤيتها في الحال)

بعثت برسالة إلى أغنيس على وجه السرعة لتزورنا و تجلس بجوار دورا و هي طريحة الفراش و تتحدث معها و تسر خاطرها بأسلوبها الهادئ و اللطيف في الكلام .

مرت الأيام و صحة دورا تتدهور أكثر من ذي قبل ، فلم تعد قادرة على النوم و لا على الكلام مع أي أحد كان كما ينبغي إلا بالهمس ، و قد لاحظت أغنيس هذا الأمر عندما زارتها مجددا حيث خرجت من غرفتها حزينة للغاية على وضعها الميؤس منه دون أن تشعرني بذلك خوفا علي من الصدمة (دافيد ، دورا تريد أن تراك)

توجهت مسرعا إليها حيث رأيتها و بدت ضئيلة الحجم أمامي وسط سريرها الكبير من شدة المرض دون أن يفقد وجهها الشاحب جمالها الآسر إلى قلبي حتى هذه اللحظة ، فجلست بقربها و أمسكت بيدها الباردة (دافيد ، لقد كنت زوجة سيئة بالنسبة لك ، فلم أقم بإدارة منزلنا بشكل سليم و لم أجعله مريحا لك و لم أساعدك في عملك كما يجب ، و مع ذلك مازلت أحبك حب العبادة ، أرجوك سامحني على ما فات)

أجهشت بالبكاء عند سماعي لإعتذارها الحزين (أوه عزيزتي دورا ، لا تقولي هذا ، لقد كنت نعم الزوجة الصالحة ، لذا فأنا أحبك أكثر من ذي قبل)

(أنا مسرورة لسماع هذا الكلام ، و أنا بدوري مازلت أحبك يا عزيزي قبل أن ينتزعني الموت الزؤام من حضنك الدافئ في أية لحظة ، لذا لن أشعر بالإرتياح حتى أطمئن عليك بزواجك من إمراة أخرى تكون زوجة صالحة لك مدى الحياة)

(أوه لا تقولي مثل هذا الكلام يا عزيزتي ، فأنا لا أريد إمراة في هذه الدنيا سواك)

لمست دورا شعري بحنان (أنا سعيدة بذلك ، فأنت هذه اللحظة مازلت تحبني ، تحب دورا الحمقاء رغم فقرها و عيوبها ، و الآن قبلني يا دافيد ثم إبعث بأغنيس إلي)

قبلت و غادرت غرفتها و من ثم توجهت إلى أغنيس التي بدورها توجهت إلى دورا في غرفتها حيث بقيت خارجها منتظرا لما سيدور بينهما ، فإذا بجيب يحوم حول مقعدي و يمدد قدميه بالقرب منه فربت على رأسه (آه يا عزيزي جيب ، دورا مسكينة بين الحياة و الموت ، فإذا رحلت عن دنيانا في

أيــة لحظــة سأشــعر بــالحزن الشــديد عليهــا ، مســكين يــا جيــب ، مسكين)

لــم يتحــرك جيــب مــن مكانــه ، فمــا إن لمســته حتــى فــارق الحيــاة أمــامي ، و فــي تلــك الأثنــاء فوجئــت بخــروج أغنــيس الســريع و الغريــب مــن غرفــة دورا تجهــش بالبكــاء ، فنهضــت مــن مقعــدي على الفور (ما الأمر يا أغنيس ؟ هل دورا .....)

(لقد ماتت يا دافيد ماتت)

منــذ ذلــك الحــين و انــا بــدأت أفقــد الإحســاس بــالزمن و أنعــزل عــن حــولي مــن النــاس غارقــا فــي وساوســي و بكــائي طــوال الوقــت يومــا بعــد يــوم حزنــا علــى وفــاة زوجتــي الراحلــة دورا التــي أحببتهــا حبــا جمــا ، مــا دفعنــي هــذا الوضــع البــائس الــذي مازلــت أعــاني منــه إلــى التفكيــر بمغــادرة الــبلاد إلــى غيــر رجعــة (ســأرحل مــن هنــا ، أنــا أكــره إنجلتــرا و لــم يعــد لــي أي مقــام فيهــا الآن ، و لكــن قبــل ذلــك علــي أن أمــر بمكتــب الســيد وايكفيلــد لرؤيــة الســيد ميكوبر و تريدلز)

عنــدما وصــلت إلــى هنــاك وجــدتهما مــازالا يســاعدان الســيد وايكفيلــد فــي إحصــاء النقــود المنهوبــة منــه (كيــف تجــري الأمــور معكم هنا يا تريدلز ؟)

(شئ لا يصدق يا دافيد ! لقد خسر السيد وايكفيلد المزيد من المال بسبب جرائم القذر يوري هيب و إستغلال طيبته سعيا وراء نهب أموال المودعين المودعة للمكتب ، حاليا هو مريض للغاية طريح الفراش و تقوم إبنته أغنيس بالعمل نيابة عنه حيث ستقتني مدرسة صغيرة و تديرها و ستخصص أرباحها لتسديد الأموال المنهوبة للمودعين ، أما بالنسبة لأموال الآنسة تروتوود البالغ قدرها ألف جنية إسترليني فلم يتمكن يوري من سرقتها و مازالت موجودة في خزينة المكتب

، لقد أصبحت عمتك غنية مجددا)

فما إن علمت بهذه الأخبار السعيدة من تريدلز حتى إنطلقت مسرعا نحو لأخبرها بإستعادة أموالها المسروقة من يوري هيب ، فطارت فرحا و طربا عند سماعها ذلك حيث قررت حينها تسديد ديون السيد ميكوبر كاملة و مساعدة عائلته (السيد ميكوبر مازال مدينا للمحتال يوري هيب بالنقود و هو غير قادر على تسديدها و بالتالي سيكون مصيره السجن ، فمن الواجب أن أقف إلى جانبه في هذا المأزق عرفانا بجميله لنا)

ذهبت مع عمتي إلى منزل السيد ميكوبر لنفاجأ به يرتدي هو و أفراد عائلته ملابسا جديدة مستوردة من أستراليا ، و على الرغم من منظرها الغريب نوعا ما إلا أن السيد ميكوبر كان

يتباهى بها بمنتهى الفخر و الإعتزاز (أنا سعيد للغاية ، فلم يعد لدي الآن أية أسرار أخفيها عن الجميع ، و قريبا سأسافر إلى أستراليا و أصبح رجلا مهما هناك ، ها ها ها ها)

في تلك الأثناء سمعنا طرقا شديدا على الباب ، فتوقف عن حديثه المسلي معنا ليفتحه ليفاجأ أمامه بشرطي طويل القامة يسأل عنه (هل أنت السيد ميكوبر ؟)

(نعم أنا هو يا حضرة الضابط ، خيرا إن شاء الله ؟)

(أنت رهن الإعتقال لعدم تسديدك الدين الذي عليك للسيد هيب و قدره ألفي جنية بموجب هذه الوثيقة الموقعة بخط يدك)

(أوه لا ، ليس لدي أية نقود لتسديد ديني بالمرة ، يا إلهي سأدخل السجن لا محالة و أموت بين جدرانه العفنة و على إثر ذلك سيموت أفراد عائلتي من الجوع و الفقر ، كم أنا رجل بائس و تعيس للغاية ، اهئ اهئ اهئ ....)

ربتت عمتي على كتفه بحنان (لا تقلق يا سيد ميكوبر و لن تدخل السجن أبدا ..... حضرة الضابط ، هاك المبلغ المطلوب لتسديد الدين و لا داعي للقبض عليه و إرساله إلى السجن)

مـا إن إسـتلم الشـرطي مـن عمتـي المبلـغ المطلـوب و قـدره ألفـي جنيـة و رحـل حتـى قبـل السـيد ميكـوبر يـدها عرفانـا بالجميـل (آنسـة تروتـوود ، أنـت رائعـة حقـا لأنـك رجـلا أحمـق مـديون طـوال عمـري مـن السـجن ، شـكرا جـزيلا لـك علـى إعـادة السعادة و الفرح إلى وجهي مجددا)

غنـى السـيد ميكـوبر فرحـا و طربـا و صـنع لنـا الشـراب الفـاخر إحتفـاء بتسـديد ديونـه و عـدم دخولـه إلـى السـجن ، و فـي تلـك تحـدثت مـع خـالتي حـول السـيد ميكـوبر (يجـب ان يكـون للسـيد ميكـوبر أمـوالا كافيـة عنـد سـفره إلـى أسـتراليا ، سـوف أعطيـه خمسمائة جنية)

(لا داعـي لإعطائـه النقـود مباشـرة ، أنـت تعلمـين أنـه جاهـل و أحمـق للغايـة فـي تعاملـه مـع النقـود ، لـذا أنصـحك بإعطائهـا للسـيد بيجـوتي فهـو أيضًـا مسـافر إلـى أسـتراليا و قـادر علـى الإحتفاظ بنقود السيد ميكوبر و الإعتناء بها بشكل سليم)

(و هو كذلك يا دافيد)

(إذن ، سأزور السيد بيجوتي و أحدثه في هذا الموضوع)

ذهبـت إلـى منـزل السـيد بيجـوتي فـي يرمـوث و هنـاك إلتقيـت بـه مـع السـيدة جيميـدج دون أن أعثـر علـى إيميلـي فـي غرفتهـا ،

فحدثت السيد بيجوتي عن السيد ميكوبر و نقود عمتي التي تنوي أعطاؤه إياه (لا عليك يا بني ، سأساعد السيد ميكوبر و أهتم بنقوده)

(شكرا جزيلا لك يا عمي)

(بالمناسبة ، لقد كتبت إيميلي رسالة لهام ، و أنت كما تعلم مشغول جدا بأمر سفري و لا يمكنني أن أبعثها إليه ، فهل بإمكانك إرسالها لهام بدلا مني ؟)

(بكل سرور يا عمي)

في تلك الأثناء كنت عاطلا عن العمل و مازلت أبحث عن أي وظيفة و لو كانت صغيرة و بأجر زهيد حتى أتخلص من أحزاني على وفاة دورا ، فقررت حينها الذهاب إلى يرموث على متن الحافلة ، لقد كان يوما عصيبا للغاية لحظة وصولنا إليها حيث كان الجو عاصف و الرياح عاتية للغاية لدرجة اني لم أتمكن من النزول من الحافلة أو الوقوف على قدمي بالضبط ، فأسرعت الخطو نحو الفندق لأقابل هناك أحد خدمة الواقفين عند بابه لإستقبال الزبائن حيث حمل أمتعتي إلى غرفتي رغم تذمره الشديد من الطقس السيء الذي يسود

أرجاء المدينة (لم أر طقسا سيئا بهذا الشكل في يرموث من قبل)

(إنها ليست المرة الأولى التي تشهد مدينتا مثل هذا الطقس السيء يا سيدي ، فنحن معتادون على جوها العاصف و بحرها القاسي القلب منتصف كل عام و الذي يغدر بالسفن الراسية فيه و يحطمها شر تحطيم و يقتل رجالها شر قتلة)

(أمر مؤسف حقا)

صعدت إلى غرفتي و مازال الجو العاصف هذه الليلة يثير أعصابي ، فلم أتمكن من تناول العشاء و لا النوم خوفا من الرياح العاتية و صوتها المزعج و هز نوافذ غرفتي و تحطيمها شر تحطيم حيث ظننت أن قوتها الطاغية قادرة على تحطيم الفندق أيضا ! من يدري ؟

في صباح اليوم التالي ، ركض الخادم نحو غرفتي صارخا (بسرعة يا سيدي بسرعة إلى البحر الذي قذف لنا بسفينة محطمة من أثر العاصفة الهوجاء ترسو على الشاطئ علنا ننقذ بعض الرجال الركاب فيها)

ركضت مع الخادم بأقصى سرعة إلى هناك دون أن نتمكن من مواجهة الرياح العاتية بعدما قذفت كلانا إلى الوراء ، و مع

ذلك واصلنا ركضنا نحو الشاطئ حيث وجدنا العديد من الرجال يقفون بمحاذاته و كان هام من بينهم ، فصرخت عليهم قبل أن يضيع صوتي وسط العاصفة (أين السفينة ؟)

فأشار أحدهم بسبابته إلى الأمام (هناك)

لم تكن السفينة بعيدة عن ناظري عندما رأيتها حيث كان يتواجد على متنها أربعة أشخاص ، إبتلع البحر إثنين منهم و بقي شخصين على سطحها المحطم ، فصرخت من شدة خوفي على الجميع بوجوب إنقاذهما في الحال بعدما ظهرت ملامح أحدهما من بعيد حيث بدا لي بأني أعرفه جيدا من خلال قامته الطويلة و إرتدائه لقبعة حمراء ، فصرخ هام بدوره علينا طالبا منا حبلا طويلا يستخدمه لإنقاذهما حيث سيسبح بإتجاه السفينة العالقة في عرض البحر ، فأعطاه أحدنا الحبل المطلوب حيث لفه حول جسده الضئيل ، جميعنا راقب من بعيد البحر المسجور و قد بدا جبلا شديد الوعورة يحيط بالسفينة المنكوبة و من فيها إحاطة السوار بالمعصم ، فصرخت على هام خوفا عليه (لا تذهب يا هام حتى لا يقتلك البحر بأمواجه الغاضبة)

(علي الذهاب إلى هناك لإنقاذهما مهما كان الثمن)

توجهت إلى الشاطئ منضما إلى بعض الرجال المسكين بحبل هام المربوط به و أنا أراقب معهم السفينة بعدما أغرقها البحر في جوفه و أصبحت أثرا بعد عين قبل أن تعود للظهور أمامنا مجددا و لكن ليس على متنها سوى شخص واحد فقط ، فسحبنا الحبل و أعدنا هام إلى الشاطئ و هو على قيد الحياة ، و مع ذلك طلب منا المزيد من الحبال لأنه سيسبح بإتجاه السفينة مجددا (أرجوك يا هام لا تذهب ، لقد هشم البحر وجهك ، و لو عدت إلى السفينة مرة ثانية ستموت)

(لا يهم ، يجب ان أذهب إلى هناك مجددا)

أصر هام على خوض عباب البحر الهائج مجددا غير مكترث لتوسلاتي و لا للأمواج الغاضبة و لا الرياح العاتية التي زادت حدتها عن ذي قبل و جرح هواؤها البارد عيناي المرهقتين من قلقي الشديد عليه دون أن يؤثر سلبا على بصري حيث تمكنت من رؤيته و رأسه هو يصارع الأمواج بمفرده مصارعة الأسود لصياديها في سبيل إنقاذ أرواح من تبقى على متن حطامها قبيل غرقها المحتم و لا سيما ذو القبعة الحمراء الذي خلعها ملوحا بها لحظة إقتراب هام منه و إخراجه منها ، و لكن البحر عاد لثورانه الهائج مرة أخرى و إبتلع السفينة في جوفه بلمح البصر أمامنا ! صرخ أحد الرجال فينا مستنجدا بنا

(لقد غرقت السفينة و لم نتمكن من إنقاذ الرجل الوحيد الباقي فيها ، فهلموا يا رجال نسحب الحبل بكل ما أوتيتم من قوة حتى ننقذه من الغرق)

سحبنا الحبل بكل ما أوتينا من قوة كي ننقذ هام من الغرق و لكن دون جدوى حيث قتله البحر بلا رحمة أو شفقة و أبعد الرجال جثته عن الشاطئ قبل أن يصرخ أحدهم في وجهي عند عثوره على جثة أخرى في نفس المكان (سيدي ! تعال معي بسرعة و أنظر إلى هذه الجثة !! إنها للرجل الذي بقي في السفينة !!!)

فذهبت معه و إقتربت من الرجل الغريق بقبعته الحمراء الذي مازال متشبثا به حتى الرمق الأخير ، و ما إن تعرفت عليه حتى أصابتني الصدمة ، و من تأثيرها الشديد الوطأة علي أجهشت بالبكاء عليه بعدما عرفت من يكون ، لقد كان صديقي المسكين ستريفورث (لقد خسرت زوجتي و هام و الآن أخسرك أنت ؟ أخسر أفضل أصدقائي دفعة واحدة و في يوم واحد ؟ آه يا ستريفورث المسكين ، آه يا هام المسكين ، اهئ اهئ اهئ)

حمل الرجال جثة ستريفورث بعيدا عن الشاطئ دون أن أتمكن من مساعدتهم باقيا في مكاني بمفردي أتجرع مرارة أحزاني

على من رحلوا عني في هذه اليوم المشئوم ، بعد ذلك غادرت يرموث إلى لندن و من هناك توجهت إلى منزل السيدة ستريفورث و ما إن عبرت بوابتها الشاهقة حتى بدا لي المنزل مظلما و كئيبا للغاية ، و مع ذلك طرقت الباب لتفتح الخادمة لي و تقودني عبر السلالم إلى السيدة ستريفورث و معها روزا دارتل (سيد كوبرفيلد ؟! لماذا .....؟)

(إبنك ستريفورث .....)

(هل هو مريض ؟)

ظلت المرأتان تنظران إلي و قد إبيض وجيههما من الخوف (أخبرنا يا كوبرفيلد ! لقد مات ، أليس كذلك ؟)

(بلى يا روزا ، هو ذاك)

أخبرتهما عن العاصفة الهوجاء و السفينة العالقة في عرض البحر في ذلك اليوم المشئوم ، فتنهدت السيدة ستريفورث و بقت في كرسيها دون حراك و دون كلام من تأثير الصدمة الشديدة عليها ، أما روزا فظلت تلمس جرحها القديم على وجهها قبل أن تلتفت في لمح البصر إلى السيدة ستريفورث (لقد مات ! ستريفورث مات يا خالة !! و أنت السبب في ذلك !!! بدلالك الزائد له أفسدت تربيته و جعلته مغرورا و

مزهـــوا بنفســـه أكثـــر مـــن الـــلازم ، أتـــرين هـــذا الجـــرح الـــذي فـــي وجهـــي ؟ إبنـــك هـــو مـــن تســـبب بـــه جـــراء تكبـــره الـــذي لا يطـــاق و جعلـــه يتعـــالى علـــى مـــن حولـــه و يـــزدريهم بعـــدما ربيتـــه علـــى هـــذه الصـــفات الســـيئة منـــذ نعومـــة أظـــافره حيـــث أصـــبح أنانيـــا لا يهمـــه غيـــر مصـــلحته و إرضـــاء غـــروره و إشـــباع رغباتـــه فحســـب ، أنـــت السبب ، أنت السبب)

بعـــد ســـماعها هـــذا الإنتقـــاد الجـــارح لهـــا مـــن قبـــل روزا لـــم تنطـــق الســـيدة ســـتريفورث بحـــرف واحـــد و إبـــيض وجههـــا و شـــاخ مـــن شـــدة المـــرض العضـــال الـــذي ألـــم بهـــا تـــوا (آنســـة دارتـــل تـــوقفي عـــن إنتقاد السيدة ستريفورث و جرح مشاعرها رجاء)

(لقـــد أحببتـــه حبـــا جمـــا ، رغـــم معاملتـــه القاســـية لـــي و تكبـــره علـــي إلا أنـــي أحببتـــه حـــب العبـــادة لدرجـــة انـــي قلـــت لنفســـي بأنـــه يحبنـــي أيضـــا و ســـيتزوجني لاحقـــا و ســـأكون ســـعيدة للغايـــة معـــه حتـــى و لـــو لـــم يكـــن زوجـــا لطيفـــا معـــي قبـــل أن يتركنـــي بســـببك يـــا ســـيدة ستريفورث ، أنت السبب ، أنت السبب)

ظلـــت الســـيدة ســـتريفورث فـــي مكانهـــا غيـــر قـــادرة علـــى الحركـــة أو الكـــلام أشـــبه بـــإمراة ميتـــة مـــع وقـــف التنفيـــذ (أرجـــوك ياآنســـة دارتـــل تـــوقفي ، الســـيدة ســـتريفورث مريضـــة للغايـــة و قـــادرة علـــى الإنصات إليك)

ما لبثت أن إلتفتت إلي بنظراتها الحادة (أما أنت يا كوبرفيلد ، فلقد كنت أسوأ صديق عرفه ستريفورث في حياته ، فلقد أخذته إلى يرموث ، و هناك تعرف على إيميلي التي سرقته مني ، طوال عمرك و أنت لا تحضر لنا سوى الأخبار السيئة ، أنت محظوظا للغاية مثلنا ! لذا إرحل من هنا ، أنا أكرهك ، أكرهك)

وقفت عند الباب و نظرت خلفي حيث رأيت روزا تجلس بجوار السيدة ستريفورث الجامدة في مكانها دون حراك تحتضنها بذراعيها و تجهش بالبكاء معها (آه يا خالتي العزيزة ، كلانا أحبه بطريقته الخاصة و مع ذلك مات بسببنا ، آه يا خالتي المسكينة ، آه يا ستريفورث المسكين ، اهئ اهئ اهئ اهئ)

غادرت منزل ستريفورث و قد إتشح بالسواد و عمته الأحزان .

في صباح اليوم التالي ، ودعت أنا و عمتي آل ميكوبر و السيد بيجوتي قبيل مغادرتهم إلى أستراليا على متن إحدى القوارب ، و قد قبل السيد ميكوبر يد عمتي عرفانا بجميلها له (سأعمل بجد في أستراليا و سأصبح رجلا مهما هناك ، شكرا جزيلا آنسة تروتوود)

صعد السيد بيجوتي معي إلى القارب و سألني عما إذا هام بعث برسالة لي أم لا ؟ فكذبت عليه و أخفيت عنه خبر وفاة هام في عرض البحر البارحة ، سيما و أني رأيته سعيدا و بشوشا للغاية بسفره و لم أحبذ إفساد فرحته بذلك الخبر الحزين ، فغيرت الموضوع بسؤالي عن إيميلي حيث أشار بسبابته إليها و هي تصعد إلى السفينة و معها مارثا (مارثا طلبت منا المجئ معنا إلى أستراليا حيث سننعم جميعنا بحياة أفضل هناك)

صافحته بحرارة قبل صعوده إلى متن السفينة الراحلة إلىأستراليا (وداعا سيد بيجوتي ، و لا تنسى أن تبلغ وداعي لإيميلي و مارثا)

(سأفعل يا دافيد ، و سأعود و أتي لرؤيتك في يوم من الأيام)

و إلتفت صوب السيد ميكوبر الذي ودعني و صافحني بحرارة و هو يبكي (سأكتب الرسائل إليك من أستراليا يا عزيزي كوبرفيلد ، اهئ اهئ اهئ)

(وداعا سيد ميكوبر)

أعلن قبطان السفينة للركاب بأنه حان وقت إبحارهم من الميناء الآن ، فغادرناها أنا و عمتي في الحال و نزلنا إلى

الرصيف نراقبها من بعيد مربوطة بالحبال قبل أن يرميها بحارتها إلى الماء إيذانا بإنطلاقها بعيدا عن الميناء و نحن نلوح بأيدينا مودعين للسيد بيجوتي و آل ميكوبر و هم بدورهم يصرخون مودعين لنا (سيبدأون حياة جديدة هناك يا عزيزي دافيد)

لم أبادل عمتي نفس شعورها المتفائل حيث أحسست بالحزن الشديد على فراقي لأعز أصدقائي و من بينهم زوجتي دورا و ستريفورث و هام الذين أوجعوا فؤادي الكسير برحيلهم المبكر عن دنيانا الكئيبة تلك ، و منذ ذلك الحين قررت أن أبدأ حياة جديدة و لكن هذه المرة خارج وطني إنجلترا حيث عزمت السفر العديد من بلدان العالم على أنسى من خلالها جميع أحزاني إلى غير رجعة .

الفصل السادس عشر

زرت العديد من البلدان دون أن أتمكن من نسيان الماضي حيث مازلت أفكر بهام الشجاع و ستريفورث المسكين و بزوجتي الجميلة دورا التي لم يعد لحياتي أي معنى بعد رحيلها عني ما دفعني إلى إنهاء حياتي بيدي أيضا .

لم أتمكن من العمل جراء ما ألم بي من مرض شديد ، ما دفعني للسفر إلى سويسرا بعد عدة شهور من إصابتي به حيث عشت هناك في واد جميل للغاية ذو طبيعة خلابة ساحرة أيضا جعلتني أنسى ببطء أحزان الماضي و همومه الكئيبة ، و عندما شعرت بالتحسن عدت إلى مقابلة الناس و الإختلاط بهم و الإستمتاع بالحياة و مباهجها مجددا .

بدأت بتأليف كتاب جديد حيث بعثته إلى تريدلز بعد الإنتهاء منه كي ينشره في إنجلترا ثم يرسل حصيلة مبيعاته لي ، ذات يوم وصلتني رسالة من أغنيس حيث قرأتها مرارا و تكرارا مستمتعا بأسلوبها اللطيف و الرشيق في الكتابة (يا لي من رجل أحمق ، لقد عرفت الآن بأني أحبها حبا جما رغم أنها تعتبرني بمثابة أخيها الأكبر و بالتالي لا يمكنني أن أطلب يدها للزواج ! ذلك الأمر سيفاجئها و يجعلها تشعر بالصدمة

منـــي و يـــدفعها إلـــى رفـــض طلبـــي رفضـــا قاطعـــا ! و مـــع ذلـــك سأعود إلى إنجلترا مهما كان الثمن)

عـــدت إلـــى لنـــدن و تجولـــت فـــي شـــوارعها و بيوتهـــا و أنـــا ســـعيد للغايـــة بعـــودتي إليهـــا رغـــم بردهـــا القـــارس ، ثـــم توجهـــت إلـــى منـــزل تريـــدلز المكـــون مـــن ثلاثـــة غـــرف صـــغيرة الحجـــم ، و مـــا إن صـــعدت إليـــه عبـــر الســـلالم حتـــى إســـتغربت مـــن ســـماعي لأصـــوات فتيـــات بـــداخلها ، و عنـــدما فـــتح تريـــدلز البـــاب صـــرخ مرحبـــا بـــي (كوبرفيلـــد ؟! يـــا لهـــا مـــن مفاجـــأة ســـعيدة ! تفضـــل ، تفضـــل بالدخول ، يبدو أن صحتك قد تحسنت عن ذي قبل)

صافحته بحرارة (مرحبا بأعز أصدقائي القدامى)

و أثنـــاء دخـــولي المنـــزل فوجئـــت بســـيدة غريبـــة لأول مـــرة أراهـــا فيـــه ، فســـألت تريـــدلز عنهـــا و مـــن تكـــون ؟ ليخبرنـــي و هـــو بغايـــة الفـــرح و الســـرور بأنهـــا زوجتـــه صـــوفي حيـــث تزوجهـــا هـــذا الأســـبوع (لمـــا لـــم تخبرنـــي بـــذلك يـــا تريـــدلز ؟) (أحببـــت أن أعملهـــا لـــك مفاجأة يا عزيزي ، ها ها ها)

لقـــد كانـــت زوجتـــه صـــوفي فتـــاة جميلـــة و صـــالحة للغايـــة ، و بعـــد زواجهـــا مـــن تريـــدلز إصـــطحبت شـــقيقاتها و العديـــد مـــن أقربائهـــا للعـــيش فـــي منزلـــه الصـــغير الحجـــم دون إعتـــراض منـــه ، و مـــع

ذلك تمكنت زوجته من إدارة بيته و الإهتمام به و شقيقاتها معا بشكل سليم أدى إلى راحته و سعادته أيضا ، تبادلت الأحاديث المسلية معهم و ضحكنا منها معا ، لقد كان مساء سعيدا للغاية في هذا المنزل المتواضع جعلني أحب كثيرا أول مساء لي قضيته في لندن منذ عدة أيام .

في صباح اليوم التالي ، سافرت إلى دوفر لزيارة عمتي حيث أخبرتني بعض الأخبار السعيدة من أستراليا عن السيد بيجوتي و السيد ميكوبر الذي عمل بجد هناك دون أن يستدين المال من الغير كعادته و غالبا ما كان يرسل لعمتي بعض ما يجنيه من النقود في أرض المهجر (بالمناسبة يا عمتي ، هل أغنيس تزوجت ؟)

(كلا يا عزيزي ، لكن ربما تتزوج عما قريب)

(أوه لا)

إستغربت عمتي من صراخي على خبر زواج أغنيس المحتمل (يا عزيزي ، أغنيس فتاة رائعة للغاية فائقة الجمال أيضا ، و من الطبيعي أن يطلب العديد من الرجال يطلبون يدها و يسعون للزواج منها)

(أعلم هذا)

نظرت عمتي إلي نظرات حادة للغاية (ثم أن أغنيس ليست حمقاء مثل بعض الفتيات الحمقاوات هذه الأيام) تركت عمتي في دوفر متجها نحو كانتربري و لا سيما إلى منزل السيد وايكفيلد دون أن أجده فيه تاركا أغنيس بمفردها (أهلا و سهلا دافيد ، كيف حالك ؟)

(بخير و الحمدلله ، أنا على ما يرام و سعيد برؤيتك)

لم يكن ما قلته للتو صحيحا ، فلم أكن على ما يرام و لا سعيدا برؤيتها و لم أتمكن من أخبارها بمشاعري الحقيقية نحوها (يبدو أنه لديك بعض الأخبار الرائعة لي ، أليس كذلك ؟)

(أخبار جيدة ؟! أنا لا أفهم !!)

(أنك قريبا ستتزوجين ، أليست هذه أخبار رائعة ؟)

(كلا ، هذا غير صحيح ، فأنا لن أتزوج أبدأ ، لأنني غير قادرة على ذلك)

فجأة سالت الدموع المنهمرة من عينيها (آه ، يا لي من حمقاء ، لا تنظر إلي هكذا)

(عزيزتي أغنيس ، ما الخطب ؟ ما الذي يمنعك من الزواج ؟)

(أنا أحب شخصا ما ، و مع ذلك لا يمكنني الزواج منه لأنه لا يحبني رغم حبي الدائم له)

(حبك الدائم له ؟ أرجو ذلك ، من سعيد الحظ هذا ؟)

إحتضنتها بذراعي الطريتين (أغنيس أخبريني ، من هو ؟)

تأملت أغنيس عيناي الحائرتين (أنت يا دافيد ، أنا آسفة ، أنت مثل أخي الكبير و لا يمكنني الزواج منك ، أعلم هذا)

صرخت في وجهها بحماس شديد (و لكني أريد الزواج منك ، أنا أحبك يا أغنيس ، أعلم جيدا بأن كلامي هذا صادر من رجل أحمق لكنه مغرم للغاية بحبك ، هل تتزوجيني ؟ هل تحبينني حقا ؟)

(سأظل أحبك دائما و سأتزوجك)

إحتضنتها مجددا و تأملت عينيها الجميلتين بإستغراب (لما أنت حزينة ؟)

(لست حزينة ، و لكني تذكرت دورا عندما ذهبت إلى غرفتها و هي ممددة على السرير دون حراك جراء مرضها العضال ، و مع ذلك طلبت مني أقطع لها وعدا دون أن أفهم قصدها ؟

لأفاجأ بأنها تطلب مني أن أتزوجك بعد وفاتها ، بعد ذلك رحلت عن دنيانا إلى غير رجعة ، اهئ اهئ اهئ)

مسحت دموعها و قبلتها (عليك أن تفي بوعدك لها)

في تلك الأثناء ، دخل السيد وايكفيلد علينا حيث أخبرناه بأمر زواجنا ، فطار فرحا بهذا الخبر السعيد أيما فرح .

عدت إلى دوفر و أغنيس معي مما أثار إستغراب عمتي نحونا رغم ترحيبها الحار بنا (أهلا و سهلا بك يا دافيد ، أهلا و سهلا بك يا أغنيس)

(لقد كنت على صواب يا عمتي ، أغنيس ستتزوج قريبا)

بدت عمتي مذهولة للغاية مما سمعته للتو (أوه لا ، هذا غير صحيح)

(بل صحيح يا عمتي)

(آه يا عزيزي دافيد ، و من سعيد الحظ الذي سيتزوجها ؟)

قبلت عمتي بفرحة (أنا ، أغنيس ستتزوجني)

طارت عمتي فرحا بهذا الخبر السعيد (أنا سعيدة للغاية لسماعي ذلك منك يادافيد ، فهي تحبك دائما ، أعلم هذا)

كانت عمتي مسرورة للغاية تضحك و تبكي و تصرخ من فرحها بهذا المناسبة السعيدة ، تزوجت أغنيس و عشت معها في لندن و أنجبنا خمسة أطفال من كلا الجنسين ، و ذات يوم زارنا السيد بيجوتي قادما من أستراليا حيث أراد رؤيتنا و رؤية أطفالنا الخمسة (كيف حال إيميلي يا عمى ؟)

(بخير و الحمد لله و إن كانت لم تتزوج بعد ، و لكنها سعيدة للغاية بمساعدة الناس الفقراء هناك)

(و ماذا عن مارثا ؟)

(لقد تزوجت شابا من أهل البلاد و لطيف معها و كلاهما يعيش مع بعضهما البعض في سعادة و هناء)

(و السيدة جيميدج ؟)

فرك شعره الرمادي و ضحك (السيدة جيميدج لم تتزوج بعد ، طلب رجل يدها فرفضته رفضا قاطعا ، و لكن هذا ليس معناه أنها مازالت حزينة و كثيرة الشكوى كعادتها ، فمنذ أن وطأت قدماها أرض أستراليا حتى باتت في غاية السعادة و الفرح و تعمل بجد و تهتم بي أفضل من ذي قبل)

(و السيد ميكوبر ؟ ماذا جرى له ؟)

(آه ، أموره هذه الأيام تسير على ما يرام ، فلقد أضحى الآن رجلا مهما للغاية و من أثرى الأثرياء في هذه البلاد و لم يعد ذلك الرجل المديون المبذر الفقير الذي لا يعرف كيفية التصرف بنقوده بشكل سليم ، و بالمناسبة أرسل لك هذه الرسالة ، تفضل)

ما إن أعطاها السيد بيجوتي لي حتى فرحت بمحتواها حيث يخبرنا فيها بأنه و عائلته في غاية السعادة و أمورهم تسير على ما يرام أكثر من ذي قبل .

مرت الأعوام و لم يخب أمل عمتي فيها بعدما صار لها إبنة أخ مني انا و أغنيس عندما رزقنا بإبنتنا الصغيرة التي أسميناها دورا على إسم زوجتي الراحلة ، كما أن خادمتنا العجوز بيجوتي عاشت معنا و إهتمت بأطفالنا الخمسة الذي باتوا في غاية السعادة و الفرح و سارت أمورهم على ما يرام بفضل تربيتها الحنونة لهم ، أما بالنسبة لصديقي القديم تريدلز فقد أضحى واحدا من أغنياء لندن يمتلك المزيد من المال دون حاجته لإدخارها كما في السابق و يعيش مع زوجته صوفي في بيت كبير و جميل هناك .

ظللت طوال اليوم أعمل في تأليف كتابي الجديد حتى وقت متأخر من الليل حيث شعرت على إثرها بالتعب و الإرهاق

الشـــديدين دون أن أفقـــد طعـــم الســـعادة الحقيقـــي عنـــد الإنتهـــاء منـــه ، فأنـــا لـــم أعـــد أعـــيش بمفـــردي طالمـــا شـــريكة حيـــاتي الرائعـــة تقـــف إلـــى جـــانبي و تعمـــل معـــي أيضـــا حتـــى وقـــت متـــأخر مـــن الليـــل عـــن طريـــق ترتيـــب كراســـي غرفـــة مكتبـــي و طاولتهـــا و مكتبتهـــا و غالبـــا مـــا كنـــت أنظـــر إليهـــا خـــلال عملهـــا و هـــي تبتســـم لـــي ، ســـتظلين بجـــانبي دائمـــا إلـــى الأبـــد يـــا زوجتـــي العزيـــزة الصـــالحة و اللطيفة أغنيس .

(النهاية)